السياسة الستراتيجية العربيّة

لتحرير واسترداد فلسطين

أمين النفوري

ان ما يهم الانسان العربي في مختلف بقاع العالم العربي في الظرف الراهن أن يعرف الخطوط العامة للسلوك السياسي - الستراتيجي الواجب اتباعها عملياً في كل البلاد العربية في سبيل بلوغ هدف تحرير واسترداد الديار المقدسة واقرار الحق العربي فعلياً بالتصرف الذاتي وتركيز الجهود العربية في هذا المجال .

ولا بد ان يدرك المواطن العربي العادي ويعي تماماً ، أن كل قرار يتخذه العرب بهذا الخصوص يرتبط أساساً بعناصر السياسة

الخارجية الدولية ومعطياتها ، ويتعلق بعوامل وتفاعل الاوضاع المحلية والداخلية في المنطقة العربية .

وسنعالج على صفحات هذه المجلة بالتتابع على قدر ما يتسنى لنا التبسيط والتقريب للاذهان ، أهم المسائل الستراتيجية الاساسية المتعلقة بتكوين القوة العربية اللازمة للتحرير والاسترداد . والتي تشكل في مجموعها، الاساس العملي للفكر الستراتيجي العربي الراهن وآفاقه المقبلة .

تشمل اهم هذه المسائل الستراتيجية :

١ – تنظيم الحلف العربي من الوجهة السياسية والعسكرية والاقتصادية، مع طرح القضايا الاساسية فيه كالاهداف السياسية والعسكرية واطار الحلف وهيئاته والسلطات السياسية العليا فيه وصلاحياتها . شروط الانسجام في الحلف العربي والتوازن الداخلي فيه والتضامن الجماعي .

٢ – المشاكل الستراتيجية الكبرى في الدفاع العربي الجماعي .

الاعداد للحرب الطويلة الأمد وشروطها النفسية والاقتصادية والسياسية والاجتماعيـــة .

تعيين الاهداف السياسية والستراتيجية والعسكرية للحلف .

٣ – تحديد الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية للحرب، وتحديد طبيعة الحرب مع الصهيونية والاستعمار ، وتعيين اساليب خوض الصراع المسلح ومراحل الحرب معها .

٤ – اعداد القيادات العسكرية العليا للحلف واثر ذلك في تطوير العقيدة العسكرية العربية .

٥ ـ العقيدة العسكرية العربية ومرتكزاتها وجوهرها ومضمونها .

٦ ـ مناهج المعاهد العسكرية العربية العالية .

٧ ـ دراسة المعطيات العامة لتصميم الخطة الستراتيجية العامة ضد اسرائيل .

٨ ـ بناء القوات المسلحة العربية وأسسه وخطة التسليح .

٩ ـ الخطة النفسية للحلف العربي ضد اسرائيل والصهيونية .

١٠ ـ الخطة النفسية العربية المعاكسة .

١١ ـ خطة المخابرات والاستعلام عن اسرائيل .

١٢ ـ خطة التعبئة المدنية والعسكرية .

١٣ ـ الهدف السياسي الحضاري للحلف والستراتيجية العسكرية للحلف .

١٤ ـ كيفية اختيار الموقف الستراتيجي العربي المناسب .

تشمل هذه الدراسة البلاد العربية برمتها كمنطلق اساسي لفكرة التحرير والنضال ازاء الصهيونية والاستعمار المؤيد لها .

ولهذا ، فإن الإطار الذي تضمه هـــذه الدراسة يشمل الاقطار العربية مندمجة في جهد متحد أو موحد ومقسمة الى مناطق جغرافية حسب الاعتبارات الستراتيجية الراهنة وتبعاً لتطور المواقف العربية الستراتيجية على النطاق المحلي أو على الصعيد العالمي ، وتشمل هذه المناطق مسارح حرب محتملة أو مقبلة :

١) مسرح الحرب والمسارح البرية العربية :

١ ـ المسرح الشرقي ويضم :

بلاد الشام والرافدين (سورية ، العراق ، الاردن ، لبنان ، الكويت) .

٢ – المسرح الغربي ويضم :

مصر ، ليبيا ، تونس ، الجزائر، مراكش ، موريتانيا ، المناطق الجنوبية من الصحراء الكبرى .

٣ – المسرح الجنوبي ويشمل :

المملكة العربية السعودية ، اليمن الشمالي والجنوبي ، امارات الخليج العربي وبحر عمان ، الصومال ، السودان .

ملاحظة : يمكن ان تضم السودان طوراً الى المسرح الغربي وطوراً الى المسرح الجنوبي حسب تحول مركز الثقل السياسي الستراتيجي للجهد العربي .

٢ – المناطق البحرية العربية

١ – المنطقة البحرية الغربية وتضم غربي المتوسط وغرب البحر الاطلسي .

وتشمل : ليبيا وتونس والجزائر ومراكش وموريتانيا

٢ – المنطقة البحرية الشرقية وتضم شرقي المتوسط

وتشمل : مصر وسورية ولبنان

٣ – المنطقة البحرية الجنوبية وتضم البحر الأحمر والبحر المحيط الهندي وبحر العرب .

وتشمل مصر والمملكة العربية السعودية والسودان واليمن والصومال وامارات الخليج العربي والكويت والعراق .

٣ – المناطق الجوية العربية

وتنطبق تقريباً على المناطق الجغرافية لمسارح الحرب مع بعض التعديلات

الطفيفة . مع ملاحظة الاهمية القصوى لليمن الجنوبي والشمالي والصومال وامارات الخليج العربي لتمركز المنطقة الجوية العربية الجنوبية .

ان المشاكل الرئيسية الستراتيجية التي تعترض القيادة الموحدة العربية هي :

١ - كيفية التنسيق بين مسرح الحرب ومسارح العمليات العربية والمناطق البحرية .

٢ - تعيين القيادات اللازمة لهذه المسارح وتحديد حجم القوات اللازمة واقامة شبكة مواصلات عامة للاقطار العربية المنضمة لقيادة عسكرية موحدة .

٣ - تعيين أهداف ومهمات المسارح وخطوط العمليات واتجاهاتها .

٤ - تنظيم مناطق الدفاع الجوي وتوزيعها بالنسبة لمسارح العمليات بالاضافة الى شبكة الدفاع الساحلي عن الاقطار العربية .

٥ - تنظيم الدفاع عن مناطق البترول العربي (حقول الجزيرة في سورية ، حقول كركوك . عين زالة والزبير في العراق ، الأحمدي في الكويت ، منطقة الدمام والظهران في السعودية ، البحرين ، قطر ، ابو ظبي ، سواحل البحر الأحمر البترولية في مصر ، حقول ليبيا والجزائر) . وتأمين الاحتياط .

٦ - تنظيم الوقاية المدنية في الاقطار العربية على مستوى الدفاع الوطني واتخاذ التدابير العامة والعسكرية ، وخصوصاً عند استخدام العدو اسلحة جرثومية وكيماوية .

٧ - تأمين القوة البحرية اللازمة للنقل والتنقل بين مسرح وآخر .

الهدف السياسي – الاجتماعي والحضاري للحلف

ان الهدف السياسي – الاجتماعي والحضاري للحلف، هو اعادة البناء الفكري والنفسي وغرس المرتكزات الصحيحة القوية لعقيدة عربية اصيلة في اطار تاريخي حضاري .

المرحلة الاولى

١ – ترسيخ وتدعيم فكرة الصمود العقائدي والسياسي والستراتيجي للقيادات السياسية العليا والقيادات العسكرية العليا العربية ، وتأصيل مفهوم المجابهة المسلحة المستمية للقيادات الميدانية العسكرية والقيادات الدنيا العسكرية في مسرح الحرب ومسارح العمليات المحتملة ، وبث الثقافة الستراتيجية الواسعة والعالية ونشرها في صفوف القيادات السياسية والعسكرية وإشاعة الوعي السياسي العام مع الاستفادة من العبر والدروس الماضيــة التي مرت في تاريخ العرب الحديث ، لفهم القضايا الستراتيجيــة الرئيسية وتكوين وانشاء الفكر السياسي الستراتيجي السليم .

٢ – تهيئة أسباب الصمود السياسي والنفسي والعسكري في الشعوب والجماهير العربية بالاستناد الى كل الامكانات الشعبية في الامة العربية .

٣ – المثابرة على البحث والتقصي في السياسة العسكرية التي يجب أن يتبعها العرب حسب الظروف المحلية والاحوال الدولية مع مختلف الفرضيات والاحتمالات الممكن تصورها منطقياً وحسب تطور هــذه الحالات . وانشاء المؤسسات العالية والمعاهد المتخصصة في هذا النوع من الدراسات وتجهيز واعداد المصادر الفكرية لهذا الغرض .

٤ – جمع القوى العربيـــة الفكرية والنفسية والعلمية والاقتصادية والعسكرية على الصعيد الداخلي العربي وفي المجال الخارجي الدولي للرد والتصدي بالقوى المسلحة العربية النظامية المتحالفة أو الموحـــدة القيادة وبالتشكيلات الجماهيرية وبالمنظمات الفدائية العربية ، على التحدي الاستعماري الصهيوني في الوطن العربي .

٥ – كسب الانصار والاصدقاء في المحافل الدولية لتأييد القضية العربية .

٦ – تقوية الامكانات والطاقة الاقتصادية العربية في سبيـــل النهوض الاقتصادي العام مع رفع المستوى الفكري والاجتماعي للعرب ، وتقوية الدول العربية منفردة ومجتمعة .

٧ – العمل على تقريب الأوضاع السياسية والاقتصادية العربية وتلاقيها ودمجها في سبيل الجهد الحضاري العربي العام .

٨ – بحث سياسة التسليح ونظام التسلح في البلاد العربية .

٩ – زيادة القدرة الدفاعية العربيـــة العامة وتطويرها وتنميتها بالنسبة للاخطار المحلية والعالمية الواقعة على المنطقة العربية عامة ومنطقة الخلف العربي بصورة خاصة .

١٠ – الاعداد والأهبة الدائمة لصراع مسلح ممكن الحـــدوث في كل لحظة مع الاستعمار والصهيونية .

١١ – استعادة المبادهة السياسية والستراتيجية

١٢ – تعبئة الطاقات والفعاليات العربية العامة .

١٣ – الاستمرار في الكفاح الطويل الأمد ، والاحتفاظ بروح معنوية عالية وتصميم أكيد على النصر .

المرحلة الثانية

– تطوير الاوضاع الدولية والاستفادة من الظروف وخلق الملابسات الملائمة عند اختلال التوازن العالمي لصالح العرب وذلك عند تغير الاوضاع النفسية العالمية لاستعادة واسترداد الأرض العربية في فلسطين .

السياسة العسكرية للحلف العربي

تتعلق استراتيجية الحلف وترتبط وتتبدل وتتطور بناء على :

١ – ميزان القوى العالمية .

٢ – الفكر السياسي العالمي السائد والعقائد المختلفة والعقيدة المعادية المسيطرة .

٣ – العقيدة العسكرية الذاتية العربية من الوجهة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

٤ – الوضع الجغرافي .

٥ – الموقف الداخلي الراهن في الاقطار العربية .

٦ – التطور الاقتصادي والعلمي والصناعي والفني والعسكري في البلاد العربية .

الهدف السياسي العام : انهاء كيان اسرائيل وتصفية دولتها بمنع الاستقرار والهجرة اليها بالقيام باعمال استراتيجية معينة مع الجد في ازالة العقلية العنصرية منها ونزع إضعاف العقلية العسكرية في نفوس مترعميها باللجوء الى تدابير عملية فعالة في هذا السبيل .

الهدف الأساسي العسكري – الستراتيجي : تدمير القوات المسلحة الاسرائيلية في الميدان والقضاء على بقية الأهداف في عمق البلاد بأن واحد لحرمانها في وقت واحد من امكاناتها العسكرية والسياسية والاقتصادية لمتابعة الحرب وكقاعدة لاستقبال العون الخارجي .

الأهداف الاستراتيجية العامة : يمكن ان تختار قيادة الحلف تحقيق احد هذه الأهداف او جملة منها .

١ – مثل جهاز القيادة السياسية المعادية (مراكز القيادة السياسية والعسكرية) وجهاز الادارة والحكومة .

٢ – تدمير القوة المعنوية المعادية .

٣ – تدمير القوة العسكرية المعادية (القوات المسلحة في الميدان ، الاحتياط ، الوسائط الستراتيجية ، القواعد والمنشآت العسكرية البرية والبحرية والجوية ، مناطق تجمع الاحتياط) .

٤ – تدمير الطاقة الاقتصادية ، المناطق الصناعية .

٥ – طرق المواصلات .

الاسلوب : خوض الصراع المسلح وتنفيذ الاعمال الستراتيجية التي تتطلبها مستلزمات الستراتيجية العسكرية للحلف العربي والقيام بجميع العمليات ضمن فكرة وخطة استراتيجية واحدة باشراف قيادة مركزية موحدة .

ينبغي اختيار انواع الأعمال الستراتيجية الحاسمة لتحقيق اهداف الصراع المسلح وتعيين الوسائط الستراتيجية المناسبة للقيام بهذه الأعمال .

الاستراتيجية القريبة المدى للتحالف العربي :

— انشاء قوات دفاعية رادعة مدعوة للتدخل بصورة جماعية وفورية .

— تخصيص القوى اللازمة ووضعها في مسرح الحرب ومسارح العمليات المحتملة والجبهات العربية وفي المستوى الستراتيجي المطلوب لمواجهة التهديد الاستعماري الصهيوني المستمر ، والاحتفاظ بأقصى الوسائل الجاهزة للتدخل في النزاع في أية لحظة وأي مكان على الجبهة العربية العامة وبحيث تكون فيها فعالية هذه القوات أشد ما تكون .

— تأمين حرية المناورة بتوفر قوات عديدة متنوعة في المسارح العربية لمزيد من الاختيارات الطارئة .

— اعتناق مبدأ المركزية والقيادة الموحدة في قيادة العمليات الستراتيجية ومراقبتها وادارتها ؛ إذ أن توزيع السلطات وتداخلها وتشتت الصلاحيات وتشابكها ، والتردد والحيرة في الأنساق الستراتيجية يؤدي الى شل وتجمد « العمل العسكري » وعطالته وسلبيته ، مما ينقص من فعالية التدابير الستراتيجية والتعبوية المتخذة إزاء العدو الصهيوني .

— ادارة العمليات الجوية لغرض استراتيجي بصورة مركزية .

الاستراتيجية البعيدة المدى :

— تعتمد في الدرجة الأولى على الاقتصاد العربي وتطويره ، وعلى التنمية الاقتصادية ورفع المستوى الاجتماعي والفكري للجماهير العربية .

— جعل سلوك اسرائيل والاستعمار ردود فعل على العمل العربي المخطط ،

وانعكاساً فورياً على تدابير محكمة يتوخاها العرب في هذا السبيل بحيث ينقطع أمل الاستعمار وتجاوزه من امكانية التأثير في العرب فيغير موقفه جذرياً بسبب اختلال التوازن المحلي والعالمي لصالح العرب. تتوقف حسمية الستراتيجية العسكرية العربية وفعاليتها على نوعية الستراتيجية الميدانية المطبقة في ساحات العمليات، إذ أن دور الستراتيجية الميدانية حاسم وفاصل في الأشكال التي تتخذها العمليات والمعارك والتي تقرر آخر الأمر مصير الحرب كلها.

يؤخذ بعين الاعتبار عند وضع الستراتيجية العسكرية العربية الأمور التالية :

دراسة تطور الستراتيجية تبعاً لنمو وتعاظم قوة الأسلحة المتوفرة عند العرب واليهود، مع ابراز التحول والتقيد في اختيار الأعمال الحربية الدفاعية أو الهجومية المناسبة والموافقة للتقدم المتسارع التكنيك الحربي. اذ ان تطور الاسلحة في الواقع يؤدي الى حدوث تغييرات هامة في العلاقات الدولية ويوجد عوامل جديدة في كيفية بدء الأزمات السياسية وحدوثها ووقوعها ومجراها.

ومن هنا تبدو أهمية وضرورة تحليل الأوضاع السياسية المحلية والعالمية بالإضافة الى دراسة تطور حالة الحرب القائمة بين العرب واليهود مع وضع مختلف الاحتمالات واقتراح الحلول المناسبة لها على مستوى ارفع درجات التسلسل والقيادة السياسية والعسكرية في الحلف العربي، وذلك في كل ما يتعلق بأمور الدفاع عن الوطن العربي، لكي يتسنى لرجال الدولة والسياسة والقادة العسكريين تصميم سياسة واستراتيجية عربية ملائمة، تبعاً لوجود الأسلحة ونظام التسليح الحاضر القائم، وامكانات تطوره المحتملة والمقبلة.

وينبغي في هذا السبيل وضع مختلف الاحتمالات لمجابهة شتى أنواع تصاعد

الحرب مع اسرائيل والصهيونية والاستعمار ومواجهة امكانية حدوثها فعلاً مع تأثير وسائل العمل السياسية والعسكرية على الستراتيجية العربية المتخذة .

ان الستراتيجية العربية الصحيحة هي التي تعتمد بآن واحد على السياسة والقوة العسكرية . وان التحليل السياسي والستراتيجي للاوضاع القائمة مع اسرائيل والاستعمار الداعم لها، ينبغي ان لايؤدي الى السلبية والعطالة والعجز والشلل نتيجة تخيل الفروق الهائلة بين تسلح العرب والاستعمار الداعم لاسرائيل .

ان المنطلق الاساسي في تخطيط الستراتيجية السياسية الاستعمارية والمسلمات الرئيسية في فرضياتها المتصورة عن الحرب هو تخيّل واضعي هذه الخطط السياسية، ان العرب سوف يقفون حائرين مشدوهين وبالتالي خائفين مذعورين لا يجرؤون على الرد والتصدي والمقاومة فيستسلمون ويلقون سلاحهم عندما تبدو لهم دلائل التدخل الاستعماري وامارات اي احتمال عمل عسكري اجنبي ضدهم لشكهم في فعالية قواهم لمجابهة هذا التحدي الاسرائيلي الاستعماري ، فيتهيبون خوض الحرب والدخول في معركة سافرة ويتخلون عن اهدافهم ويتراجعون .

ولهذا فان العمليات الاسرائيلية ضد العدو تبدو مهيأة في اطـــار عمل عسكري استعماري محتمل او وشيك الوقوع بحيث تشل نفسياً فكرة المجابهـــة وارادة المقاومة عند العرب .

وعلى هذا فان المنطلق النفسي السليم للتفكير السياسي الستراتيجي العربي الاصيل هو افتراض حتمية تدخل استعماري لصالح اسرائيل ثم اتخاذ التدابير السياسية والستراتيجية والعسكرية المناسبة وابداء التصميم الفعلي الجازم على اتخاذ هذه التدابير ، ومجابهة التحدي الاستعماري نفسه اذا اقتضى الأمر مهما عظمت وطأته ومهما كانت التضحيات .

ومن المؤكد ان الامكانات السياسية والوسائل العسكرية العربية والتدابير الاقتصادية بصورة خاصة ، اذا مادعمتها ارادة المقاومة الفعلية للاستعمار في نفوس انظمة الحكم العربية ، والتصميم الجازم على المواجهة المسلحة ، كافية في المراحل الاولى للتصدي لاسرائيل مع النسق الاول الستراتيجي الداعم لها ضمن حوض المتوسط خاصة وعلى مقربة منه .

ان أي تفكير عربي يستبعد ويستغرب الحرب مع اسرائيل ويشك في نجاحها معتمداً على منطق الخوف من دبول التدخل الاستعماري ، انما هو منطق يحكم على نفسه بالموت والاندثار دون ان يبذل أي جهد او تضحية لاثبات الوجود والبقاء العربي .

ينبغي ان لا يعتري الفكر العربي أي خوف او وجل من التصميم على تقحم تصاعد النزاع الى منتهاه وأقصاه مها كانت اخطاره لان ذلك مسألة حياة أو موت بالنسبة للعرب بعد تقدير سليم ووزن صائب للتهديدات وذيولها العملية والنفسية المترتبة على الاقلاع عن مجابهتها ، وبعدمعرفة الصحيحة للعوامل السياسية والعسكرية والاقتصادية والتكنيكية التي تؤثر في مجرى العمليات المحتملة ضد اسرائيل والاستعمار ، وبعد ادراك درجة التعارض والتناقض ومقدار الاخطار التي يتعرض لها النظام الاستعماري من جراء الصدام مع العرب ، وموازنته مع المصلحة الذاتية للاستعمار وسلامته العامة الدولية .

لا يمكن الادعاء والجزم لأول وهلة ، أن دخول الحرب مع الاستعمار هو مغامرة وأن الجرأة والاقدام على ذلك سيكون خسارة محققة للعرب .

ان التصميم والعزم على تقبل الأخطار وتحدي التهديدات مها كان مصدرها

وبالوسائل المتوفرة هو من اولى مبادىء السلامة العربيــــة وهو المنطلق والمنطق الصحيح للتفكير السياسي الستراتيجي العربي الاصيل .

ان مفهوم الوسائل لمجابهة التحدي الاستعماري الصهيوني لا يشمل الوسائل العسكرية البحتة ، فالامكانات البشرية العربية وطاقاتها الجماهيرية الواسعة والقدرة الاقتصادية العربية الضخمة والرقعة الجغرافية الواسعة هي الداعم الكبير والقاعدة الأساسية لمرتكزات الوسائل العسكرية العربية الصرفة .

ان شدة مراعاة جانب الاستعمار والانصياع لارادته خشية سطوته قد أدت فيما مضى إلى كوارث ونكبات قومية وفواجع تفوق كثيراً في ذيولهـــا ونتائجها أشد اهوال التمرد على تلك الارادة فيما لو حصل هذا التمرد فعلاً .

وان سجل اسرائيل و « سوابقها » يجب ان يكون كافياً وعبرة بالنسبة للعرب لشحذ قواهم وعدم التردد والحيرة والتشكك في سلوك اسرائيل والاستعمار او النهيب من مجابهته .

ان التخوف والوجل لا يدفع شراً ولا ينجي من ضرّ ولا يقي من سوء بل هو مثير وحافز ودافع لتشجيع العدوان .

واذا لم يكن من الموت بد فمن العجز ان تموت جبـانا

إن التأثير في الخصم الصهيوني لا يكون إلا بالاشتباك والمواجهة معه في معركة مسلحة في ساحة حرب ، تستنزف فيها قواه البشرية القليلة التي يعتمد عليها والتي يستقدمها بصعوبة من الخارج ، في نفس الوقت الذي تدمر وتحطم فيـــه معداته واسلحته التي يستند اليها حسب زعمه في التفوق على العرب وفي حفظ ارواح جنوده وتوفيرها من الاشتباك القريب .

ان امكانية التعويض عن الخسائر الحاصلة في الطاقة البشرية المحددة عند اسرائيل وخصوصاً القدرة العددية في قواتها المسلحة ، أصعب بكثير من التعويض

عن الخسائر في المعدات التي يسهل جلبها وشراؤها باموال الرأسمالية الصهيونية من مختلف الدول الأجنبية .

ان نسبة ومعدل الاستنزاف البشري الناتج عن المعركة بين العرب واليهود غير متكافئة ، ويمكن ان يحتمل العرب بكل سهولة مهما كانت اسلحة اليهود وتكتيكهم المقبل نسبة استنزاف بشري في ساحة العمليات بمعدل واحد الى خمسة عشر .

ان احداث الخرق في توازن القوى الستراتيجي عند اليهود لصالح العرب في ساحة المعركة ينبغي ان يكون في كثرة الاصابات البشرية الواقعـــة في صفوف القوات المسلحة الاسرائيلية وان يكون ذلك من الاهداف الاولية الرئيسية للستراتيجية الميدانية العربية .

وحينئذ لن تحدي اليهود معداتهم واسلحتهم مهما كثرت وتنوعت أو تفوقت عند استنزاف مواردهم البشرية لأنه لن يتوفر لهم العدد اللازم من القوة البشرية لاستخدامها إزاء التفوق البشري العربي المنظم والكاسح .

غير أن استنزاف وتدمير بعض الوسائط المــادية التي يعتبرها الخصم الصهيوني أساسية لخوض الصراع ، من القضايا المهم التركيز عليها في مرحلة معينة من الحرب لتسهيل استنزاف موارده البشرية .

وعلى هذا ينبغي أن يكون الغرض السياسي من الحرب الحلف وان يصبح الهدف الستراتيجي للعمليات الحربية العربية ، والغاية الميدانية والتعبوية للقطعات في ساحة المعركة ومرامي الصمود الفردي والشخصي والجماعي في مؤخرة الجبهة العربية أو في خطوط النار مع العدو الصهيوني هو :

استنزاف العنصر البشري للجيش الاسرائيلي واستنفاذ احتياطه المستقدم من البلاد الاجنبية .

حول أوضاع الجامعات العربيّة

بسّام الطيبي

لقد سررت كثيراً عندما طالعت مقال الدكتور شكري فيصل حول أوضاع كليات الآداب في الجامعات العربية [1] وسرني أن أدخل في نقاش معه حول ما تطرق إليه في هذا المقال على أمل توسيع هذا النقاش ليشمل عدداً من الكتاب والمفكرين وحتى طلاب الجامعات العربية ليقولوا رأيهم، على أمل أن يؤثر هذا النقاش على دفع عجلة الاصلاح الشامل للجامعات

---

(١) انظر : دكتور شكري فيصل : كليات الآداب في الوطن العربي بين الاصالة والتبعية ، في مجلة « المعرفة » السنة السابعة – عدد ٧٧ – يوليو ١٩٦٨ – صفحة ٤٦ – ٦٧ .

العربية ، فكلنا يعلم أن الجامعات العربية لم تساهم مطلقاً في تطوير فكر الثورة العربية أو في محاولات التغلب على أوضاع التخلف ، لذلك فان اصلاح الجامعات العربية وتحويلها الى مؤسسات ثورية تخرج ثواراً علماء وليس حاملي شهادات لايجيدون شيئاً إلا التدريس أوشغل الوظائف البيروقراطية ، بشكل وظيفة عاجلة . وقد دعوت منذ فترة قصيرة الى فتح نقاش حول هذه القضايا لدى معالجتي لشئون الطلبة العرب في ألمانيا الغربية (١) حيث قدمت أيضاً بعض الاقتراحات .

١ – حاجة الثورة العربية للعلوم الاجتماعية والانسانية :

لقد انتشر بعد فترة الاستقلال في الدول العربية مرض أريد أن اسميه مرض احتقار العلوم الانسانية ، والاكاديميون العرب يعلمون ذلك جيداً . ففي هذه الفترة بدأت البرجوازية الصغيرة المثقفة في النشوء في الدول العربية بعد عودة العديد من خريجي الجامعات الأوروبية من العرب، وكان الاتجاه السائد هو محاربة ماقد يؤدي الى فتح نقاش علمي يجعل اشارات الاستفهام تتزايد حول الاوضاع العربية آنذاك باشكالها النصف اقطاعية – برجوازية . ومن هنا يأتي مايسمى بكراهية العلوم الاجتماعيـة النقدية وتبجيل علوم كالطب والهندسة المعمارية – بشكل خاص فكانت المكانة الاجتماعية للطبيب والمهندس ، أما المتخصص بالعلوم الانسانية فكان وما زال محتقراً . فيكفي أن يقول احدهم أنه يدرس الفلسفة أو الأدب أو السوسيولوجيا حتى يثير الابتسامات الساخرة

(١) انظر : بسام طيبي : مشكلات الطلبة العرب في ألمانيا الغربية – الآداب – سنة ١٦ – عدد ٨ – صفحة ٧٤ – ٧٧ .

وأنا لا أريد الوقوع هنا بالوضع المعاكس لأضع العلوم الانسانية في المرتبة الأولى ، وأنا أعلم جيداً أنه مما لايحتاج النقاش أننا بحاجة الى الأطباء بالدرجة الأولى والى المهندسين من أجل الأخذ بالتكنولوجيا الحديثة على طريق التصنيع للقضاء على أوضاع التخلف اللاإنسانية ، ولكن هذا يجب أن لايعني مطلقاً عدم حاجتنا للعلوم الانسانية ومن هنا يأتي سروري لمناقشة الدكتور فيصل لهذه المسألة عندما نقد في مقاله المذكور أولئك الذين يزعمون و أننا في غير حاجة ماسة الى كليات آداب أو الى مثل هذه الكليات النظرية الأخرى التي تتجه الى الدراسات الانسانية ، وتقتصر عليها . ذلك ان ايماننا بكليات الآداب لايقل عن ايماننا بكليات العلوم » (١) ويضيف الدكتور فيصل قائلاً أن كليات العلوم الانسانية « ليست نافلة من النوافل ولا ترفاً من الترف ولا شيئاً يمكن أن يستغنى عنه ، ولا أمراً يمكن أن نؤخره الى فترات متأخرة » (٢) ولكن التفكير المعاكس هو بالذات الذي سيطر على عقول معظم مثقفينا . فتحليل أوضاع المجتمعات العربية من وجهات نظر سوسيولوجية ، اقتصادية ، سيكولوجية ، انتروبولوجية ، أدبية أو تاريخية ، يملك نفس أهمية بناء مصنع أو مكافحة مرض سار أو أي عمل آخر يقوم على الطب أو التكنولوجيا أو العلوم الطبيعية . فمثلاً يحتاج برنامج لبناء مصنع — اذا كان يقوم على أسس علمية — الى المهندس والطبيب ، الأول يهتم بالآلات والثاني بصحة العمال ، بقدر مايحتاج الى سوسيولوجي التصنيع Industriazation ، Sociolgist أو الاقتصادي

---

(١) الدكتور شكري فيصل : المصدر الآنف الذكر صفحة ٥٧ .

(٢) نفس المصدر — نفس الصفحة

أو السيكولوجي المختص بشؤون المناخ داخل المصانع حيث يشعر العمال بالراحة النفسية مما يؤدي الى ازدياد انتاجيتهم .

لذلك سميت ظاهرة احتقار العلوم الانسانية مرضاً لكونها مثل الامراض الاخرى السائدة في المجتمع العربي عائقاً على طريق التغلب على أوضاع التخلف . لذلك فان ماتطرق اليه الدكتور فيصل كبير الاهمية ويحتاج إلى المزيد من النقاش والتعميق ، وعلينا ان نوعي لدى كل فرصة الآخرين ونقنعهم ان العلوم الانسانية لها نفس قيمة العلوم التكنولوجية والطبيعية والطبية ، لذلك فان أمر اصلاح الجامعات العربية ، لتكون ثورية وعلى المستوى العلمي الحديث ، لايمكن ان يتغاضى عن حقيقة أن كليات العلوم الانسانية في الوطن العربي كليات مهملة محتقرة لاتنال أي اهتمام . إذا غضضنا النظر عن اهتمام طلابها الذين هم ايضاً يحتقرونها لأن معظمهم يفضل أن يكون في كلية الطب أو الهندسة أو العلوم . لذلك فان اهتمامهم يقوم على الاجبار وليس على التفهم .

٢ — الجامعات العربية والبحث العلمي :

القضية الثانية التي تعرض اليها الدكتور فيصل هي قضية البحث العلمي ، ولكنه حصرها على كليات الآداب بينما هي تصلح لجميع كليات الجامعات العربية التي تفتقد جميعها للبحث العلمي دون استثناء .

يشير الدكتور فيصل الى الحقيقة الهامة من ان « البحث العلمي ... هو ابرز مافي مهمة الجامعات » [١] ولكن الجامعات العربية لم تقم بالبحث العلمي الجاد ففقدت بهذا أهم الصفات التي تعطي الجامعة تبريراً لوجودها . وهكذا

(١) دكتور شكري فيصل : المصدر السابق صفحة ٥٨ .

يصف د كتور فيصل الجامعة العربية المفتقدة للبحث العلمي « ابنية من غير روح، اساتذة من غير أهداف بعيدة ، وبرامج لا تكاد تنظر الى ابعد من انفها، وطلاباً لايعرفون من روح الجامعة الا مقدار ما يكون من تقييم لشهاداتهم في سوق الوزارات المختلفة ، او توازن بين هذه السوق الداخلية والسوق الخارجية »[1] بهذا يعطي الدكتور فيصــل الوصف الصحيح للجامعة العربية التي تخرج ببغاوات لاعلماء . الاستاذ الجامعي يؤلف كتاباً نصفه مسروق من كتب أجنبية ، وعلى طلاب هذا الاستاذ حفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب ، لاعادة ماحفظوه عن ظهر قلب لدى الامتحانات شفهياً او كتابياً .

وخلال زيارتي الأخيرة لدمشق حاولت التعرف على عدد من الجامعيين للنقاش معهم، وكنت اصدم كل مرة بالحقيقة المرة وهي أن هؤلاء الطلاب لا يطالعون أي شيء عدا الكتب الجامعية الاجبارية .وعندمـــا ينهون الدراسة ينتهي عصر المطالعة بالنسبة لهم ، فكانت ثقافتهم هكـــذا ثقافة قشور ، ثقافة ببغاوات . والجامعات العربية الاخرى لا تختلف كثيراً عن جامعة دمشق .

ولدى زيارتي المذكورة لجامعة دمشق اطلعت على الكتب التي تدرس في الجامعة وذهلت لدى اكتشافي ان معظم هذه الكتب لا تقوم على بحث علمي وانما صفصفة للمعلومات ، هذا الى جانب عدم اطلاع مؤلفي الكتب الجامعية التي قرأتها على آخر الابحاث العلمية مما يلاحظ لدى مطالعة هذه الكتب . وهكذا فما يدرسه الطالب العربي هو في معظم الاحيان شيء شرب عليه الدهر ومضى عليه الزمن . في الجامعات المتقدمة يجبر الاستاذ الجامعي على ان ينشر كل ثلاث

---

(١) المصدر السابق صفحة ٦٠ .

سنوات تقريباً بحثاً علمياً كبيراً ككتاب او كبحث طويل في مجلة علمية. وقيمة الاستاذ الجامعي ليست لقب البروفوسور ولقب الدكتور - مثل ما هو الأمر عندنا - وانما ما نشره من الابحاث ومدى عمقهـا. والاستاذ الجامعي الذي لاينشر لا يحصل على رفع في راتبه ولاينال المنح الدراسية التي تعطيها المؤسسات العلمية من اجل البحث العلمي. أما اساتذة جامعات الدول العربية فيكتفون بتأليف كتب ذات طابع مدرسي او بعض الكراسات البائسة وينشئون طلبتهم في هذه العقلية. ومعظم الكتاب العرب البارزين ليسوا من اساتذة الجامعات، بينما يشكل اساتذة الجامعات في الدول المتقدمة اكثر من ٩٠٪ من الكتاب البارزين. وحتى الكتاب البارزون في اوربا من غير الاساتذة الجامعيين تخاطفهم الجامعات لكسبهم فتعطيهم الكراسي حتى اذا لم يكونوا من حملة الالقاب الزجراجة.

والطلاب العرب الذين درسوا في الجامعات العربية وتخرجوا دون ان يفقهوا معنى البحث العلمي والذين يذهبون الى اوربا للتخصص يصابون بالفشل في كثير من الاحيان كما اشرت في بحثي عن الطلبة العرب في المانيا والمنشور في مجلة « الآداب »[1] ولسبب بسيط هو ان التخصص وكتابة الرسائل الجامعية للحصول على درجات عالية كالدكتوراه والماجستير يشترط معرفة كيفية البحث العلمي وهذا ما لا يعرفه خريجو الجامعة العربية في أي بلد كان بسبب انظمتها العتيقة.

وهنا آخذ على الدكتور فيصل فصله لوظائف الجامعة أو بالأحرى كليات

(١) انظر: بسام طيبي: مشكلات الطلبة العرب في المانيا الغربية: مجلة « الآداب » السنة السادسة عشرة - العدد الثامن - أغسطس ١٩٦٨ صفحة ٧٤-٧٧.

العلوم الانسانية – بين ١ – تخريج المدرسين و ٢ . البحث العلمي ، اذ لا يمكن الفصل بين هاتين الوظيفتين(١).

فالبحث العلمي يجب ان يجري ايضاً في نطاق التدريس وليس منفصلاً عنـــه . فالبحث العلمي المتخصص كثيراً وذا التعمق الكبير يمكن أن يجري منفصلاً عن التدريس . ومن هنـا تأتي ضرورة ما يطالب به الدكتور فيصل في نشوء « جماعات تتفرغ للبحث وتنقطع اليه ، حتى يكون لها بعد ذلك انتاجها المرجي فيه » (٢) ، ولكن البحث العلمي العادي يجب ان يجري في نطاق التدريس. ولذلك يجب ادخال نظام حلقات البحث Seminar الى الجامعة العربية كما طالبت في بحثي الآنف الذكر(٣). وهكذا يقوم الطلبة في جميع الصفوف الجامعية ، كل على مستواه ، بأعداد الرسائل الجامعية القصيرة التي تقوم على البحث العلمي في نطاق ال Seminar وتحت اشراف الاستاذ الجامعي لتناقش من قبل الطلبة الآخرين مع الاستاذ المختص بالفرع والعلامات التي تحصل عليها هذه الابحاث تحسب للطالب عوضاً عن الفحوص التي تقوم على الحفظ عن ظهر قلب .

عن هذا الطريق يجد كل من الاستاذ الجامعي والطالب الجامعي نفسه مضطراً لمتابعة الابحاث العلمية الجديدة . وعن هـــذا الطريق يتعود الطالب على التفكير والمناقشة من جهة ، ومن جهة اخرى على البحث العلمي المتخصص والعالي . فيكون خريجو جامعاتنا هكذا قادرين على عمل اشياء كثيرة لا يستطيعون القيام بها باحوالهم الحالية بسبب انحطاط مستوى كفاءاتهم العلمية .

---

(١) انظر مثلا صفحة ٦٠/٦١ من بحث دكتور فيصل الآنف الذكر .
(٢) شكري فيصل : المصدر السابق – صفحة ٦٥
(٣) بسام طيبي : المصدر السابق صفحة ٧٧ .

لم يأخذ حتى الآن اي عالم عربي على نفسه عناء وضع بحث شامل و كبير حول اوضاع الجامعات العربية . وليست هذه هي القضية الحيوية الوحيدة التي تمس مجتمعنا العربي وثورته المعاصرة التي مازالت دون تحليل وبحث علمي ، بل هناك عشرات القضايا يحيطها الغموض لكونها لم تعرض حتى الآن للبحث والدراسة .

ولكن للاستاذ الدكتور فيصل الشكر لطرقه الموضوع ، وحبذا لو قام هو بنفسه ببحث كهذا مما نفتقده . فالاقتراحات التي تأتي من الهواء والتي لا تكون نتيجة لتحليل عميق علمي تكون سطحية وتبقى بعيدة عن الواقع .

وحبذا لو تفتح « المعرفة » صفحاتها لمناقشة قضايا الثورة والجامعة . والجميع مدعوون لدخول هذا النقاش .(١)

(١) ترحب مجلة المعرفة بفتح المناقشة حول هذا الموضوع الجليل وترحب بنشر كل بحث جدي يردها حوله .

قضايا اجتماعية ووطنية

في الشعر العربي المهجري

د. أحمد سليمان الأحمد

شاعرنا الشنفرى، أحد الرجليين المشهورين، والصعلوك الذي جعل للصعلكة فلسفة اجتماعية، هل كان يدري عندما شد رحاله وأزمع هجراً طويلاً، بأنه قد أثار قضية اجتماعية سيدرسها علماء الاجتماع ألا وهي الانفصام والانفصال عن العشيرة ونظامها ؟ وهل كان يدري انه سيأتي من بعده أحفاد في القومية والشعر سيركبون مطايا من نوع جديد ويقطعون صحارى رمالها الأمواج الى عالم هم فيه غرباء الوجه واليد واللسان :

وعندما قال :

أقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطيّكمْ
فإني إلى قَـــومٍ سِواكُمْ لأمْيَلُ

فقَدْ حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقمِرٌ
وَشُدَّتْ لِطيّــاتٍ مَطايا وأرْحُلُ

هل كان يعلم بأن صعاوكا بعده بخمسة عشر قرنا ، نلمحه بعين الخيال من خلال شعره ، وهو يمتطي مركبة للنقل يجرها حصانان هزيلان ، وقد جلس الى جانب سائقها ، بينا تكدست الصناديق التي تحوي ما يَسُر ويُعْجِب في الجانب الخلفي من العربة . فاذا ماشيناها رأيناها أحيانا تبين وتخفى بين الروابي فكأنها تطفو وترسب في بحر ، ثم ما تلبث أن تتغلغل في غابة كثيفة لا تستطيع أشعة الشمس أن تنفذ من خلال أغصانها المتشابكة فهي لذلك في ليل دائم .

وهل كان شاعرنا القديم القائل بأن حجر الصوان اذا لاقى قـدميه الحافيتين تطاير منه الشرر ، هل كان يدري بأن شاعراً مهجريا جديداً ، في تفتيشه عن وسائل العيش ، سيستعير عجلات عربة نقل بدل قدمي الشنفرى ، وتظل الصورتان متآخيتين :

تمُرُّ على صُمِّ الصَّفا عَجَلاتُهــا
فتسْمَعُ قلبَ الصخرِ يشكو ويصْخبُ

ثم هل كان الشنفرى الذي رد أسباب الهجرة إلى الهروب من الأذى ، والى الرغبة في النجاح ، أي الى اسباب سياسية واقتصادية - بتعبيرنا الحديث - في قوله :

لَعَمْرُكَ ما في الأرضِ ضيقٌ على امرىءٍ
سَرى راغباً أو راهباً وهْوَ يَعْقِلُ

هل كان يطمح الى أن « نظريته » هذه ستجد لها مصداقاً في الهجرة العربية هرباً من أذى الاحتلال والاستعمار ، ومن الحالة السيئة على البلاد ، وطمعاً في أن تكون هناك ، وراء الأفق ، ينابيع ثرة للثروة والاكتفاء .

وبعد ، لن نؤرخ للهجرة وأدبائها ، في حديث محدود المجال ، ولكن لا بأس من الإلمام ببعض الأغراض الانسانية والمقاصد الاجتماعية التي رمى اليها الشعر المهجري . وقبل كل شيء لنلتفت الى مفهوم الشعر لدى شعراء المهجر . لعل كبيرهم في الشمال ، ايليا أبو ماضي ، قد أحسن في التعبير . جاءت فكرته صحيحة في عمقها وتقدمتها وإنسانيتها :

يا رفيقي ، أنا لولا أنتَ ما وقّعتُ لحنا
كنتُ في سري لما كنتُ وحدي أتغنّى

إنه يفهم الشعر على انه حديث للآخرين ، فلولا هؤلاء لما كان هناك معنى لأن يقول الناس شعراً . وليس هذا فقط ، بل إن هذا الشعر يجب أن يعالج أعمق مشاعر الانسان وقضايا الانسانية . ودافع جورج صيدح عن مفهوم الشعر بلسان ما يسمونه « العامة » ، باسم الجماهير التي يهزهـا الشعر ويثير فيها الحماسة ويدفعها الى تحقيق أعمال طيبة في الحياة ، لأنه يعرف كيف يثير فيها مكامن الخير والجمال .

والتقى جورج صيدح والشاعر القروي في اعتزازهما بالشعر وبدوره . فرأى الأول لو أن اللغة الفصحى عرفت ما قدم الشعر المهجري لقصت شعرها

وصيرت منه اكليلا عقدته على هامات ابنائه . بينا استيقظت في الثاني تلك الحمية الجاهلية التي كان من أعيادها ما تقيمه الشاعر اذا نبغ فيها، لأنه كان المدافع عن أعراضها ، الذائد عن حومتها :

بشاعرها فلتفتخر كلُّ أمةٍ يُهدِّدُها بالموتِ والعارِ خُذلانُ

ولا بأس من ذكر حادثة لها علاقة بمفهوم الشعر عند شعرائنا المهجريين ، فقد اشتط في مهاجمة الشاعر رشيد سليم الخوري خصماؤه في العقيدة العربية ، وذهب ببعضهم الحقد الطبقي - وأنا اسمح لنفسي بهذا التعبير هنا - فحمل على رشيد في احدى الصحف متسائلا بسخرية واحتقار : « ومن هو هذا القروي ؟ » .

وكذلك سخر أدعياء علم الجمال بشعراء الحياة الذين يكتبون للأرض والناس ونعتوهم بشعراء القطن . ولكن شعراء القطن هؤلاء كانوا هم شعراء العمل ، شعراء العمال والفلاحين ، شعراء الشعب الكادح الذي أخذ بكلتا يديه مقاليد الحكم ، شعراء بناة العالم الاشتراكي ، شعراء أبطال زمننا هذا .

ومثلما انتصر شعر الأرض والناس ، جاء الرد مقالة ذيلها رشيد سليم الخوري بهذا التوقيع الذي غدا فيما بعد من رموز النضال والإخلاص العربيين : الشاعر القروي . اوردت هذه الحادثة لأقول إن أروع الشعر المهجري وأخلده كان قرويا في منشأه ، حاملا لرسالة متوجهة الى الجماهير في إنشاده .

ولم يمنع هذا أن تكون بعض الآراء الرجعية قد صدرت أحيانا عن بعض شعراء المهجر ، ذلك لأن التقدمية يجب أن تستند أيضا الى الثقافة العميقة والتحليل العلمي الى جانب هذه العفوية وهذا الوعي المستمد من التجربة والتأمل الذاتي .

وما أصدق ما عبّر صيدح قائلاً :

ماقيمةُ الانسانِ مُعتَقِداً إنْ لمْ يَقُلْ للناسِ ماعتقدا

فهو يرى أن الشاعر ، وأن الإنسانَ عامة، مطالب بأن يتوجه الى الناس. كل هذا ينفي نظرية الفن للفن ، المغلفة بالضباب والبُعد عن المجتمع .

كانت اللغة العربية – إذا جاز هذا التعبير – وطناً لشعرائنا المهجريين، لذلك أنزلوها من أنفسهم منزلة التقديس، بل إن بعضهم ملكت عليه لغته العربية كل أوقات دراسته فلم يُلقِ بالاً الى اللغــات الأجنبية التي تتردد أصداؤها في مسامعه ، أينما ذهب ويمّمَ وجهه . وليس لي هنا – إشارة لمجدِ اللغة العربية وانتشارها حتى في تلك الأصقاع النائية – إلا أن أذكر بأن في المتحف الأمبراطوري، في بتروبوليس القريبة من عاصمة البرازيل السابقة ، كتباً عربية أهداها الشيخ إبراهيم اليازجي إلى أمبراطور البرازيل إذ ذاك ، بيدرو الثاني ، وكتب عليها كلمة الإهداء شعراً وبخط يده ، والمعروف أن الأمبراطور كان يعرف العربية .

ووجد شعراء المهجر في الأندلس وشعراء الأندلس شبهاً من حياتهم هم ، فأمعنوا النظر في مجد اولئك ، وحفزهم مجد اللغة العربية في تلك الأقطار على أنْ يزيدوا اعتزازاً وتمسكاً ومباهاة بهذه اللغة وبالنسَب العربي . فنسمع الشاعر القروي يقول :

أوَ يَستَحي بأبيهِ مَنْ دَمُهُ دَمُ شاعِرٍ وخليفةٍ ونبيّ ؟ !

كما نحسّ هــذا الحب العميق الذي لا مثيل له ، والذي يحمله الشاعر المغترب للغته حتى إنه يسامح من يسبّهُ . لماذا ؟ لأنه يسبه بلغة حبيبة اليــه هي العربية .

ولعـل من أسباب الانفصام الذي عاناه شعراؤنا في المهجر الى جانب أسباب عميقة أخرى ، هو حبهم لهذه اللغة ، وعدم تخليهم عنها للغة غيرها ؛ فما داموا لا يسمعون اللغة العربية على ألسنة المحيطين بهم ، فلا يمكن لهم أن يجدوا فيهم أصدقاء وأصحاباً ، ولا أن يجدوا أي مجال للأنس في مدينة لا يدرُجُ في شوارعها ناطق ن بالعربية .

ولقد كانت الثورات العربية أبلغ تعبير وأقواه عن طموح الأمة العربية الى استعادة شخصيتها ولغتها وحريتها وبناء كيانها الجديد ، فلا عجب أن رأينا شعراءنا المهجريين يتبارون في تمجيد هذه الثورات ، ورفع أصواتهم عالياً في نصرتها والدعاية لهـا في أوساطهم ، بل إن الكثير منهم كرس وقته ، مضحياً بصالحه الشخصية ، جائباً المدن والقرى لجمع التبرعات من أجل مواصلة النضال .

ورأينا الشاعر القروي، عام ألف وتسعمئة وسبعة عشر ، يقوم بمحاولات جدية بين أوساط المغتربين العرب في أميركا ، كي يجند فرقة لمحاربة المستعمرين وتحرير الوطن العربي من احتلالهم . وبتلك المناسبة أطلق صيحته المدوية :

لنا وَطنٌ هَلا سَمِعْنا نحيبَهُ   وهَلا رأَينا ضَعفهُ وشحوبهُ

وكان التغني بالحرية سبيل الشعراء إلى تحبيبها ، وإلى إيقاظ ما غفا منها في بعض النفوس وراء السعي في سبيل غنىً أو مجد أو سلطان ، ولو على أنقاض الحرية .

وسمعنا إيليا ابوماضي يهتف :

كنْ نبيّاً يَستَنزلُ الالهاما   كنْ مليكاً يُصدِّر الأحكاما
كن غنياً ، كن قائداً ، كن اماماً   لستَ مني أوْ تعشقَ الحُرّيه

وعندما نصب السفاح المشانق لأحرار العرب في دمشق وبيروت ، رأى

الشاعر القروي ان الحبل الذي علّقوا به هو حبل سيجمع العرب ويصل فيا بينهم ، كما ان تلك العقدة التي التفت حول أعناق اولئك الابطال ستوحد معتقد العرب.

ولا أجد بُدّاً من ذكر هذين البيتين اللذين هما صلاة شعرية موجّهة الى روح كل شهيد مات في سبيل كرامة الانسانية أينما كان :

خيرُ المطالع تسليمٌ على الشهدا ... أزكى السلام على أرواحهم أبدا
فلتنحنِ الهامُ إجلالا وتكْرِمة ... لكلّ حرٍّ عن الاوطان مات فدى

وارتفع صوت أسد موسى ، من مجاهل البرازيل ، من تلك الدنيا البعيدة يحيّي ثورة الجزائر :

موحي ليوث المغرب الأقصى ، لقد
أدْبَتم حــقَّ العروبة بالدّم
واخيبة الطاغي يفوتُه أمــةً
تأبى لغيرِ أصولهــا أن تنتمي
زعَمَ الدعيُّ بأنها رضيتْ لهــا
بــدلاً من النسبِ الصريحِ تيمم

وحقاً ، إن هذه الرابطة التي تحمل شاعراً مغموراً بعيداً في منطقــة مغمورة بعيدة ، على أن ينتفض انتفاضة العزة بثورة الجزائر التي هي ثورته ، ثورة العروبة ، لهي رابطة أقوى من المستعمر ومن كل اساليبه المبطنة والمكشوفة.

واخيراً في محاولة جذرية سريعة لتقييم الشعر المهجري لن أراني آخذ عليه ضعفه اللغوي ، فهذه تهمة لا تستند الى الواقع ، اجلب في الدعاية لها فريق من الادباء وسقطت الدعاية والداعون . ولكني سأشير إلى ان اسلوب الشعر

المهجري في قسم كبير منه هو اسلوب مباشر ، ولعله جيد في مخاطبة الجماهير . وعندي ان البيئة المهجرية هي التي أملته . وسأقول ان هــذه الاشعار لم تخل احياناً من الدفاع عن وجهة نظر لم تعد تقدمية .

ولكن أجدر هذه المآخذ بالنظرة الجدية ، هي ان هؤلاء الشعراء الذين غنوا بكل زخمهم وتدفقهم وصفائهم التحرر الوطني ، عندما كانت المعركة واضحة غير معقدة ، بين شعب يتحرر واستعمار محتل متكالب ، كانوا اقل توفيقاً عندما طالعتهم في الوطن العربي معارك من نوع جديد . فهم ، مثلا ، عندما يهاجمون شعب الولايات المتحدة الاميركية على انه صهيوني أو متصهين ، لايجدون علة ذلك في طبيعة النظام الأمريكي مثلا ، الشيء الذي اصبح بديهياً .

لذلك لانرى في شعر المهجر مايُعتدّ به حيال هذه الأزمات التي اجتاحت العالم العربي ، وقيام دول من نوع جديد ، دول اتخذت الطريق اللارأسمـــالي المؤدي الى الاشتراكية خطة اقتصادية في ظل نظام حكم شعبي تنهض به الجماهير العاملة .

ولكننا ، مع ذلك ، نلمح بعض الاضواء الـــتي يلقيها بعض الشعراء المهجريين في فترات قصيرة،على بعض المشكلات ، فكأننا نجد لها تفسيراً علمياً ، ولو باهتاً . قال فرحات بسخرية مريرة ، وهو يعني الرأسمالي صاحب أداة الانتاج :

يَاصَاحِبَ النَّوْلِ كُلْ لَحمِي وَلاتَعْتَــذِرْ
إِنِّي الصَّـدِيقُ الذي مَهْمَا تُسِيءْ يَغْتَفِرْ
أَنْقَصْتَ مِنْ أُجُورَتِي فِي ذَا الزَّمانِ العَسِرْ
هل خِفْتَ أَنْ أغْتَنِي أَمْ خِفْتَ أَنْ تفْتقِرْ

وبعد ، فيؤثر عن الرئيس الأمريكي الاسبق ، تيودور روزفلت ، انه قال للشاعر والمفكر العربي المهجري ، جبران خليل جبران : « أنت أول عاصفة انطلقت من الشرق ، واكتسحت الغرب ، ولكنها لم تحمل الى شواطئنا غير الأزهار » .

ترى ، لو كان روزفلت حياً وشاهد ماتحمل جنوده وطائراته وسفنه وساسته من الدمار والخراب والموت الى الشرق،ماذا يكون موقفه من نفسه . ومن التاريخ ، ومن الانسانية ؟

لاشك انه الخجل. ولكنه الخجل الذي لن يغيّر شيئاً من مجرى التاريخ. فالذي يضطلع بهذه المهمة والذي يوصلها الى شاطىء الأمان ، هو نضال الجماهير العاملة ، وتكاتفها وايمانها بأن كل انتصار في اي بلد كان ، هو انتصارها ، وهو خطوة حثيثة الى انهيار الاستعمار العالمي ، والطغيان العميل المحلي ،وإيذان ببزوغ فجر الحرية للشعوب والسعادة لمن يعملون.

تلك هي الراية التي يحملها شعراؤنا المجددون شعراء الشعب ، من ايدي زملائهم المهجريين . سنة الكون . ولكنه حبل متواصل مجيد لأمة واحدة،ولغة واحدة ، وهدف واحد : الحرية والجمال والسعادة لكل الناس .

المسرح

في خدمة القضية القومية

علي عقله عرسان

المسرح بوتقة فاعلة ومنفعلة ، مؤثرة ومتأثرة ، تلتقي فيهـا الأفكار والحضارات وتجارب الانسان عبر العصور ، فتتبلور القيم وتتضح معالم طريق المستقبل ، وتزداد خبرة الانسان المشاهد وثقافته ، ويستفيد من تجارب الشعوب .

في المسرح ينقلب التاريخ الى حياة ، وتتكلم الأجيال السابقة الى الأجيال اللاحقة وتعكس صوراً من حياة وحضارة الشعوب في مختلف الأزمان والأماكن .

في المسرح يتم التفاعل المثمر بين الجمهور من جهـــة وبين الأدب والفن المطروحين للتفاعل في أطر فنية جمالية من جهة أخرى . وإذا مـا حاولنا أن نذكر بعض الأمثلة لتأثير المسرح ودوره في حياة الأمم لوجدنا الكثير منها .

فعلى أعتاب المسرح خلق الأدب اليوناني شعراً طور الفكر ، وطوره الفكر . وأنتج نماذج خالدة أبقت للشعب اليوناني أثره البعيد في الحضارة الإنسانية . ولا يمكنني أبداً ان اتصور أرسطو منفصلاً عـن سوفوكليس ويوربيدس ، ولا بيركليس ومجده العظيم دون اسخيلوس وسوفوكليس . كما لا يمكنني أبداً أن أكون صورة واضحة المعالم عن الشعب دون اللجوء إلى المسرح .. ذلك السجل الخالد لحياة الشعوب بكل ابعاد الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية . انني عندما أقرأ ملهاة السلام لأرستوفان استطيع ان افهم تأثير الخلافات السياسية على حياة الناس في المدن والجزر اليونانية المتناحرة ، واثر ذلـــك على الاقتصاد والحياة الاجتماعية ، وان اوديب الذي تحدى القدر وجاهـــد ليعرف الحقيقة ليعطيني افضل مثال عن روح اليوناني كما رسمه الأدب المسرحي ليكونه اليونانيون واتصور من خلال مأساته ما هي الدسائس الـــتي كان يحيكها الكهنة للإيقاع بالملوك الذين لا يخضعون لتعاليمهم ولا يخدمون أغراضهم . ويمكن ان يعطينـا المسرح في مصر القديمة صورة عن التقاليد والمعتقدات الدينية إذا لجأنا الى مسرحيات التتويج او مسرحية ايزيس واوزوريس التي توجد على جدران معبد ادفو ، وكانت وما زالت تمنحنا الكثير من المعلومات عـــن عقيدة الفراعنة وتفسيرهم الوجود وفلسفتهم الدينية وطقوسهم .

وشكسبير يعطينا في مسرحه صورة لمجتمعه ... وكذلك الحـال عند تشيخوف وغوركي وابسن وكالديرون وموليير وبرخت واسبورن .

يمكن ان يعطينا المسرح اذن صوراً من حياة الشعوب وحركة الفكر ؟

ويمكن ان يكون مرآة للحضارة والرقي لدى امة من الأمم . فالمسرح سجل لحضارة الإنسان وحياته . ولكن هل هو فقط ذلك السجل الذي قد يغني عنه التاريخ ؟ أستطيع ان اقول — واثقاً — كلا . ان المسرح هو هذا السجل الذي يبرز دوافع التقدم والبناء لدى الإنسان ، ويحفظ الفكر والتراث وماء الحياة . المسرح سجل .. ولكنه السجل الحي الذي يعيد التراث بصورة تضمن التفاعل الخلاق بين الجمهور والفكر ، بين الإنسان والحياة ، في اطار جمالي لا تقف امام فعاليته وتأثيره في النفوس أية حواجز . والمسرح ليس تابعاً تسجيلياً لوقائع الحياة ، بمقدار ما هو تجسيم وتحديد ومحاولة لابراز الطموح الإنساني نحو الفضائل والقيم الإجتماعية والأخلاقية ونحو حياة نامية متقدمة نحو الأفضل دوماً .

لنأخذ بعض شخصيات المسرح اليوناني اوديب او بروميثيوس او انتيجون . ان كلاً منها سجل لأثر حياة ، وطموح نحو فضائل ومثل انسانية او قيم حياتية يطمح الى تحقيقها .

فبروميثيوس يمثل تحدي الإنسان لجور الآلهة الوثنية التي تحكم بنزواتها — ويجب ان نعرف ونستنتج ان نزوات الآلهة اليونانية ماهي الا نزوات الكهنة . اذن فبروميثيوس ثورة ضد التحكم والطغيان ومحاولة السيطرة باسم الدين او غيره ، وهو ثورة ضد زيف الدين .

واوديب يمثل طموح الانسان اليوناني وحبه للمعرفة وتحديه للقدر وصلابته الأخلاقية ومحاولته استشفاف كنه العالم البعيد ... واختبار الغيبيات المقدسة .

وانتيجون تمثل ثورة الإنسان اليوناني على جور نظام دنيوي يتعارض مع النظام السماوي والقيم الإنسانية .

وكريون يمثل مفهوم رجل الدولة الذي يرى ان من واجبه ان يكون صلباً وحازماً كي يحافظ على النظام والأمن ولو ادى ذلك لأن تكون قسوته على ذويه قاتلة .

كل هذه شخصيات مسرحية كان لها فعاليتها في المجتمع وتأثيرها على الفرد وبالتالي على الفكر اليوناني والإنساني بصورة عامة . واوديب او بروميثيوس او كريون او غيرها، شخصيات خلقتها الأساطير الشعبية اليونانية .. اوجدها الشعب اليوناني لتعبر عن نضاله الإنساني ضد قوى الطبيعة والقوى الغيبية ولتمثل آلامه ومطامحه وقيمه وفضائله وملاحمه وبطولاته .

وقد خلّد هـذه النماذج الشعبية هوميروس شاعر اليونان الأكبر في الإلياذة والأوديسة، وحفظ بعضها الشعب، ثم اتى شعراء المسرح فالتهموا مائدة هوميروس .. وطوروا هذه النماذج وبحثوا عن دوافعها وعمقوا ابعادها وجعلوها صورة للعبقرية الفنية والأدبية والفكرية في اليونان ... تلك العبقرية النامية المتطورة القادرة على التفاعل مع الإنسان والبيئة . لقد خلد المسرح اليوناني النماذج التي تلخص حياة الشعب اليوناني الفكرية والسياسية والإجتماعية والتي تمثل طموحه وفضائله وحضارته، باسلوب فني ادبي اغنى العالم واصبح إنسانياً لمحافظتــه على الطابع القومي اليوناني ولغوصه حتى الدقائق العميقة الأصيلة والجزئيات في الحياة اليونانية ... ومن خلال فلسفة مرتبطة بقوانين الحياة في اليونان .. تلك القوانين التي تشتق من علاقة الإنسان بأرض معينة ومن التزامه بعقيدة ومبادىء وتقاليد وظروف حياة خاصة .

والمسرح اليوناني حينما خلدهذه النماذج وطورها ونقلها للعالم، إنما خلدوابقى على استمرارية وفعالية الحياة بالنسبة للشعب اليوناني.. للروح القومية في اليونان .

لقد انطلقت هذه النماذج عبر العصور والقارات لتصبح نماذج إنسانية عالمية خالدة وعميقة ، ولم يكن ليتوفر لها ذلك لولا التزام الشعراء والفنانين في اليونان القديمة بواقعهم ... بشعبهم وبأبعاد حياتهم وتقاليدهم وعاداتهم .

ويمكننا ان نقف على نموذج معاكس ... على صورة فاجعة من صور عدم الإلتزام والتلاحم بين الفنان والشاعر من جهة، وبين الشعب والبيئة من جهة اخرى .. ذلك النموذج هو الادب المسرحي والفن المسرحي الرومانيان ، اننا حين ننظر إلى الادب الروماني والفن الروماني يصدمنا التقليد الفج للمسرح والاساطير اليونانية، وتصدمنا قوالب ادبية خالية من المضمون بعيدة عن ان تكون شيئاً يذكر في تاريخ الادب والفن ، وسبب ذلك واضح . فالاديب الروماني لم يلتزم بشعبه ولا بواقع ذلك الشعب ولم يكن الا مستورداً ومقلداً . ولهذا سحقت شخصيته امام النموذج المتكامل في الادب والفن واليونانيين ، وذابت الشخصية الرومانية من الادب والفن امام الشخصية اليونانية . فنحن لا نرى في المسرح الروماني الا الإستعراض البشع لمظاهر القوة وذلك الصراع اللاانساني بين اسد وانسان مستعبد ينتهي بالتهام الاسد للإنسان بين صيحات الاستحسان الصادرة عن مقاصير السادة . ونستطيع ان نعرف من شكسبير عن الحياة في روما اكثر مما نعرف عنها من الأدباء والفنانين الرومانيين انفسهم . فلقد قدم لنا شكسبير يوليوس قيصر، وانطونيو وكليو بطرا .. وعرفنا بجلاء على نماذج رومانية صادقة وفر لها النكهة المحلية واضاف اليها من روح الخرافة التي كانت سائدة في العصر الاليزابتي .

اننا اذا ذكرنا الشعراء والادباء في مجال المسرح، لا نذكر من روما إلا سنكا في مجال المسرح الجاد.. ومع ذلك فمسرحياته تقليد ذكي للمسرح اليوناني، أما ملاهي الرومان فهي صورة مشوهة لاقتباس النماذج مضافاً اليها حوادث مصطنعة سطحية كملاهي بلوتس وتيرانس.

واذا نظرنا الى نشأة المسرحية في العصور الوسطى في اوربا ومع بدايات عصر النهضة نلاحظ ان المسرح نشأ نشأة جديدة عبرت عن معتقدات الشعب واقتصرت على التمثيليات الدينية التي تقدم في الكنائس.. لأن العقيدة كانت تتجه بالإنسان كلية نحو الزهد وعبادة الرب، ولم تتجه به نحو الحياة الدنيوية إلا بعد ظهور تعاليم القديس فرنشيسكو وبزوغ عصر النهضة.

ومن الأساطير الشعبية وتمثيليات الخوارق في العصور الوسطى ومن معجزات القديسين، اتخذ رجال الأدب والفن المسرحي في عصر النهضة وما بعده منطلقاتهم وبداياتهم.. ووضعوا الأدب والفن في خدمة الحياة.. في خدمة الانسان.. فلجأوا الى التاريخ وفسروا حوادثه بما يتلاءم ومنطقهم وخلقوا من الشخصيات التاريخية بمساعدة الوقائع وبالتفاعل مع الحياة العامة أدباً وفناً ناضجين.. كما نهلوا من واقعهم وحياة شعبهم وأساطيرهم وخرافاتهم.. وبذلك ثبتوا دعائم أدب مسرحي في كل بلدان اوربا.. كل بلد بلونه الخاص ومميزات شعبه.. أدب نما وغزا العالم فيما بعد وارتفعت بذلك أسماء شكسبير ومارلو في انكلترا، وكالديرون ولوبدي فيجا في اسبانيا وفيما بعد موليير وراسين في فرنسا.. ولم يكن ليرتفع اولئك، مع احتفاظهم بشخصيتهم الأدبية، لولا التزامهم بالروح القومية لشعوبهم وباللون المحلي والواقع الموضوعي، وبأناس عصرهم. وما كانوا ليرتفعوا لمستوى العالمية لولا عبقريتهم مضافة الى انسان عصرهم وروحهم القومية. وخلود اولئك

وغيرهم من الأدباء والفنانين في العالم ليس خلوداً لأشخاصهم فحسب وانما هو خلود وفعالية وتأثير مستمر لروح شعوبهم القومية ولفكرهم على الأدب والفن والانسان في العالم .

نخلص من هذا الاستعراض السريع الى القول ان كل أدب وفن له نكهته الخاصة وطابعه المحدد ، وفيه غنى روحي وفكري وهو بالنتيجة انساني وعالمي ... انما حصل على ذلك لالتزامه بالروح القومية وبواقـــع الناس وبالمشا كل المحلية في أرضه وبين أناس عصره ... ولمعالجته بعمق ودقة ظروف الحياة من خـــلال الانسان الحي .

ومن ذلك نستنتج ان المسرح يرتبط بحياة الشعوب ويؤثر في تكوين الأفراد ، ويسهم في حفظ التراث الثقافي والفني والفكري للأمم ويرسم دائماً ملامح انسان المستقبل بكل قيمه وفضائله .. ويخوض دائماً المعركة الدائبة بين الانسان وظواهر الطبيعة ، بين الانسان والواقع .. من أجل إعلاء الخير والأفضل . ولا يتأتى له ان يكون فاعلاً ومميزاً وخالداً وإنسانياً إلا اذا ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالروح القومية وحافظ على روابطها العميقة فأبرزها في أطر فنية ودوافع انسانية من خلال افراد يتناولون شعوبهم وخصائص وملامح وأفكار وتقاليد تلك الشعوب .

ان المسرح حين يصل الى كل ذلك يكون قد خلد بالفعل العناصر القومية ، وخدم الشعب . وعلينا اليوم - كعرب - اذا أردنا ان تستقر للمسرح العربي جذور ثابتة وأصيلة في أرضنا العربية ، وان يتبوأ مكاناً تحت سمائنا وفي حياتنـــا وتراثنا .. علينا ان نشد عراه الى تراثنا الحضاري العريق وواقعنا الفني ، وإنساننا الدائق بالحياة والمشاكل والقيم . علينا أن نتخذ من المسرح وسيلة لتطوير الحياة والفكر العربي ونشد عراه الى القومية العربية فيحتمي بها ليكون رسولها ودعامتها

في أرواح الناس ولدى شعوب العالم ، ولكون مرآة شعبنا وحضارتنا وشخصيتنا المميزة لدى الناس في مختلف بقاع الأرض.

وليس في التزام الفن المسرحي ، أو في خدمته للقضية ، مايعيق نموه او يؤثر في تطوره ،بل على العكس ،إن التحام الأدب والفن بالروح القومية يضمنان لها لونهما وشخصيتهما وتطورهما. « فالفن دائماً ذو طابع شعبي وقومي»[1] وليس الفن كالرياضيات : مجموعة من المصطلحات المجردة الثابتة المتعارف عليها ، والعامة العالمية الموحدة . ان طرافة الفن وسر نموه وبقائه وانتشاره .. كل ذلك يكمن في كونه يعتمد على الذوق ، ويختلف من أمة لأمة ، ومن شخص الى شخص ، ويحقق طابعــاً شعبياً خاصاً . وتراثنا العربي القديم انما حقق عالميته لأنه قدم للحضارة الانسانية الشخصية العربية ذات الطبيعة الخاصة ، والتقاليد والعـادات المعينة ، ولأنه أظهر طريقة تفاعل إنسان عربي مع أرض عربية لهــا طبيعتها ومناخها واحوالها . وأظهر طريقة احساس هذا الانسان بظاهر الطبيعة ومحاولته فهمها وتفسيرها ووضع قوانينها . وبالتالي لأنه قدم شخصية أدبية فريدة للمكتبة العالمية . وهذه هي سبيلنا اليوم إذا أردنا ان نحقق هويتنا كشعب ، وان نبرز ملامحنا كأمة : سبيلنا ان يلتزم الفن بالواقع الموضوعي للانسان العربي ، وبتاريخه وتراثه وبالروح القومية .. وعنـــدما نرى الانسان العربي بمضمون قومي عربي شامل ، وشكل عربي متكامل ، يتحرك على مسارحنا ، ينطق فصحانا ، ويعيش أفكارنا ويجسم مشاعرنا واخلاقنا وعاداتنا ومطامحنا .. عندها نستطيع ان نقول إننا في طريق التقدم السليم .

---

(١) المادية التاريخية ،تأليف : كيلي وكوفالزون

والتزام الفن المسرحي بالقومية العربية يمنحه عمقه الانساني — لونه المحلي وشعبيته وتراثاً حضارياً وأدبياً واسعاً ، وتاريخاً غنياً ، وواقعاً أكثر غنى .

إن شكسبير خلد لأنه تفاعل مع الانسان والحضارة في انجلترا وقدم لنا شخوصاً انجليزية أصبحت انسانية عامة وعالمية لأنه تعمق في علاجها وكان واعياً لكل دقائق الحياة . وكذلك الأمر عند بريخت او تشيخوف او بيراندللو . لقد قدموا لنا إنسانهم .. روحهم القومية وعاداتهم ونظراتهم للحياة ولمشاكل الانسان، ولذا أغنوا الحضارة وخلدوا وأصبحت نماذجهم عالمية . ان لوركا يقـــدم لنا في مسرحه الشعري عبير اسبانيا والجمال الاسباني ممزوجين برائحة التراب والدم وضوء القمر والانسان الممتلىء حيوية .

ومـــا كان ليصل اولئك الى تلك النتائج لولا إلتزامهم بانسان عصرهم وابرازهم لخصائصه . صحيح : « إن الفن ينبع من العالم الداخلي للانسان، من فكره، ومشاعره ، ومعاناته »[١] . ولكن الفنان انما يجمع مادته من العالم الخارجي ولذا يبقى الفن « يعكس حياة الشعب وأفكاره وآماله »[٢] .

ولكن يداً واحدة لاتصفق كما يقال !!

ولذا لايكفي ان يشعر الفنان او الأديب بدورهما ، وبأهمية وخطورة هذا الدور . ولا يكفي ان نوضح مدى تأثير المسرح في حياة الأفراد والشعوب حتى نصل الى مانريد . ان هذا واجب ولكنه لايكفي . إذ ان على الجمهور الذي هو الجزء المكمل للدراما ، والعنصر الأهم ، والكيان المقصود والمتجه إليه ، أن يدرك أهمية المسرح ، ويؤمن بقدرته على ان يعطيه شيئاً جديداً ممتعاً ومفيداً وضرورياً ، وبقدرته على ان يطور حياته . وتتوقف فعالية المسرح على مدى توفر

(٢،١) المادية التاريخية ، تأليف : كيلي وكوفالزون

الثقة وتبادلها بين الفنان والجمهور . ان مسرحاً لايحظى باحترام الجمهور وثقتـه وتقديره هو مسرح عاجز عن أداء رسالته وعن التأثير في الجماهير .. وخير له أن يزول من الوجود .

لايكفي إذن ان توجد المسرح والفنان ... بل يجب ان يبرهن هـذا الفنـان وذاك المسرح على أهليتهما وقدرتهما على ان يكونا مفيدين ومقنعين وضروريين وقادرين على تثقيف وإفادة الجماهير .. حتى تؤمن الجماهير بهما . ولن يتم ذلك إلا اذا طرحا قضاياها وارتبطا بواقعها والتزما بها .

وعلى الجماهير ان تحاول امتحان الفنان بأن ترتاد المسرح لتعرف وتطلع وتكتشف ، ومن خلال اللقاءات بين الجمهور والفنان في المسرح .. تتكشف قدرة كل منهما على العطاء والتأثير المتبادل والتعاون الخلاق .

إن مسرحاً بلا جمهور شيء لايمكن تصوره .. كما ان جمهوراً بلا مسرح أمر أكثر من غريب في القرن العشرين . صحيح ان المسرح لم يعرف في تراثنـا العربي القديم، وصحيح أنه نبتة غربية في هذه الأرض وهذا التراث ، ولكنها نبتة صالحة جديرة ان تمنح الرعاية والعناية والاهتمام .

تكلمت عن التزام المسرح بالروح القومية ولم يكن ذلك الا تحقيقاً لهوية الفن المسرحي . ولكن هدفه ورسالته الكبرى تبقيان في المحاولة الدائمة لتطوير الإنسان في طريق الأفضل . والدعوة لأن يلتزم الفن بالواقع الاجتماعي وبالثورة الاشتراكية ،لا تعني ابداً الحاق الفن بالسياسة او الزام الفن بأن يكون بوقاً . ان الفن حين يلتزم بالثورة الاشتراكية من أجل وضع الاشتراكية موضع التنفيذ ومن اجل اغناء الفكر ونشر الوعي انما يرتبط بأصالته ويقوم بدوره ويحقق

شعبيته ويحافظ على بقائه واستمراريته ويثبت قدرته على المعاصرة ، والمعاصرة هي ماء الحياة بالنسبة للفن المسرحي .

ولما كنا نؤمن بفعالية المسرح وبقدرته على التأثير في الجماهير فمن باب اولى أن يلتزم بتغيير الواقع الاجتماعي السيء ، ويدعم النهضة الاجتماعية ويساهم في خلق وتطوير المجتمع الجديد .

لم يكن المسرح في يوم من الأيام سلبياً أو محايداً ... فهو لا يعرف هذه النزعة ... وان عرفها وأصبحت صفته لم يعد عندها يستحق الاسم الذي يطلق عليه .

لقد اخترنا الاشتراكية نظاماً اجتماعيـــاً ، والاشتراكية هي السبيل لتحقيق عدالة اجتماعية ولتحرير طاقة الانسان وخلق الوسط اللائق بكرامته وإنسانيته . والمسرح بالتزامه المنطلقات الاشتراكية انما يتابع اداء رسالته السامية ، ويتابع المعركة المستمرة التي نخوضها كل يوم ، المعركة بين الخير والشر من اجل الانسان . يكون المسرح في خدمة النهضة الاجتماعية عندما يحدد بدقة معالم الانسان الجديد وقيمه وطريق تفكيره ونظرته للأمور واخلاقيته من خلال الفن .

نحن نعيش ثورة ترمي الى خلق مجتمع جديد تقوم العلاقات بين أفراده على أساس من العدل والمساواة ، مجتمع يقضي على الاستغلال ويحقق عدالة في التوزيع ويحرر الطاقة المكبوتة ليفتح الطريق امام نهضة شاملة في كل الميادين . وفي طريق تحقيق هذا الهدف الانساني النبيل تقف قوى ذات مصالح ، تحاول في السر والعلانية وتريد ان تحافظ على بقائها ومصالحها ونفوذها بأي ثمن ولو أدى ذلك الى قتل الانسان وابادته . تريد ان يبقى المجتمع متخلفاً لأنها لاتعيش إلا

في الهواء الفاسد ولا تنمو الا في الظلال الرطبة ، والمسرح فن انساني يلـتزم بالانسان وخير الانسان ، وهو ثورة دائمة ومحتدمة وأصيلة ضد الظلم والاستغلال والعبودية ، والفساد والرطوبة والعفن .

المسرح فن في خدمة الانسان « والفن للشعب وعليه ان يمد جذوره عميقة في أشد جماهير الشغيلة كثافة وان يكون مفهوماً بالنسبة لها ومحبوباً من قبلها . وعليه ان يوحد بين مشاعر وافكار وارادة هذه الجماهير وان ينهض بها الى فوق . »[1]

المسرح فن . والفن « هو احدى القوى الاجتماعية التي تساهم في التـأثير المتبادل بين الظواهر الاجتماعية وتؤثر تأثيراً كبيراً على تطور المجتمع »[2] وهناك في تاريخ المسرح منارات تهدينا إلى امكانية التغيير وفعالية المسرح واثره المباشر والبعيد المدى في الحياة .

فابسن الذي رسم أول صورة للمرأة الاوربية المتحررة والذي ترك بطلته نورا في مسرحية « بيت الدمية » تهجر زوجها لأنه لايعاملها كانسانة مساوية له في الحقوق والمسؤوليات ، استطاع ان يغير المرأة الاوربية فتصبح متقدمة جداً ومساوية للرجل .

وابسن الذي اعطى صورة دقيقة لحياة امر منهارة بسبب اخطاء فردية او بسبب عوامل اجتماعية واقتصادية خاصة ، وابسن الذي فضح كثيراً من النماذج البشرية السيئة كالعمدة في عدو الشعب وغيرها من المسرحيات ، قدم الدليل لابناء مجتمعه وللعالم على

---

(١) لينين .
(٢) المادية التاريخية ، تأليف كيلي وكوفالزون .

ضرورة اعادة النظر في قوانين حياتهم الاجتماعية وعلاقاتهم وقيمهم على ضوء الاخلاق والحس الانساني السليم .

وأمثال ابسن كثيرون ممن كان لهم أثر بعيد في النهضة الاجتماعيـــة في بلدانهم ، بل وفي المجتمعات العالمية ، مثل برنارد شو وبيراندلو وبريخت وغوركي ... وغيرهم .

لقد فضح ابسن، ويفضح أمثاله من كتاب المسرح في كل يوم، مئات من العيوب والأنظمة الاجتماعية والمفاسد الخبيثة ... ففي كل أمسية تتعرى على خشبة المسرح خطيئة ... وتتكشف رذيلة .. وتتنبه الجماهير الى علة من علل المجتمع وتدعى الى العمل من أجل الفضائل الانسانية .

وعلى مسرحنا اليوم أن يحدد قيمه التي يجب أن يقوم على اساسها المجتمع الاشتراكي الجديد، وعليه ان يرسم ملامح وفضائل الإنسان الثوري الاشتراكي: انسان ثائر على الظلم والاستغلال .. ثائر على التقاليد البالية والقيم التي كانت في عهد الاستعمار وسيطرة البورجوازية قيماً انسانية مرعية .

انسان يخوض معركة طبقيـــة ضد الاستغلال والاستعمار والجهل والفوضى ... ضد عدوه الذي يكون مستعداً للتحالف مـــع الشيطان في سبيل مصالحه .

انسان يناضل من أجل حياة افضل ... يصارع الفساد في الضمائر ، والميوعة التي خلقها النظام القديم ، والسلبية التي سببها إجهاض الحركات الثورية التحررية المتواصل .. ويحارب صفات التواكل وعدم الاكتراث والأنانية التي غرستها عصور الفساد والظلم والاقطاع في نفوس الكثيرين من أبناء هذه الأمة .

على المسرح ان يقدم انتاجاً تبرز فيه علاقات المجتمع الجديد بين الناس ،

الانتاج تكون فيه أحلام واهداف وفضائل الشباب اهدافاً واحلاماً بناءة وواقعية تتصل بالحياة ... بمنطق الحياة ، حتى يساهم في بناء جيل حي فعال وواقعي ملتزم بأرضه وتاريخه وواقعه ، جيل جديد لا كذلك الذي أورثتنا إياه ورسمت صورته سلسلة من الأفلام والمسرحيات ذات المضمون المائع الهدام ، والتي تصور مطامح الشباب في حلم على وسادة خالية . وتبرز الفتاة عندنا كصورة مشوهة من البورجوازية البائدة ... وحلم لايتصل بالواقع .. حلم « بخدم وحشم ومال وجاه .. وحياة خالية من العمل والتعب » إنسانة « تنتظر ابن الحلال » الذي يقدم لها الحياة في كأس ذهبية ... ويملك العصا السحرية .

لقد اصبحت نظرة الشباب للواقع نظرة خيالية تمت الى الطفولة اكثر مما تسير في طريق التقدم والنضج ، وسبب هــذا هو الانتاج المسرحي والسينمائي السيء الذي خطط له الاستعمار ودعمته البورجوازية وغذاه الجهل وهدفه تمييع الأجيال العربية وشل فعالياتها الروحية والعقلية ، وتشويه مثلها ، وتحطيم ارادتها وروابطها القومية .

— وعلى مسرحنا اليوم أن يقدم إنتاجاً ايجابيــاً يزيل الصورة السيئة واللامنطقية من أذهان الأجيال .. فيظهر قيمة العمل في حياة الانسان وضرورة الموضوعية والنظرة العلمية والارتباط بالواقع المعاش وضرورة الالتزام بتغيير الواقع السيىء ، متسلحاً لذلك بالوعي والروح القومية والقيم الاشتراكية .

— على المسرح أن يقــدم انتاجاً منطقي المضمون لا يفسح المجال أمام التهويمات والتخيلات التي تجعل قدرة الأجيال على العمل سديمية يسهل التلاعب بها .

— على المسرح أن يقدم انتاجاً يصور فيه البطولة الجماعية ويصور الفضائل على انها عمل و كفاح واعيان من أجل الانسان .. وعليــه أن يمحو صورة

البطولات البورجوازيـــة أو البطولات التي تقوم على قيم النظم القديمة . والدونجوانيات التي لا تتلاءم وواقعنا واهداف امتنا ومجتمعنا الجديد .

ـ وعلى المسرح أن يحطم الخرافة ، وان يرفض الخزعبلات ، ويعري الدجل والفساد ـ بجرأة وبموضوعية علمية ـ بتقديمه مسرحيات سليمة المضمون ، ايجابية بناءة .

ـ وبالاختصار ، على المسرح أن يكون الانسان وان يعطينا جيلا « عربي الوجه واليد واللسان » موضوعياً ملتزماً بواقعه ... لا جيلاً مائعاً لا يصلح إلا لأن يسحق بمطرقة الحداد كيبرجنت ابسن . وعلى المسرح أن يخلق المثال الجمالي للفن المسرحي الاشتراكي .

نعم ان من مهام المسرح ومن اهدافه أن يمتع ويسلي ، ولكن فليكن هذا الامتاع مفيداً ولتكن هذه التسلية نابعة من انتقاد العقلية المريضة ، والنفوس الشاذة التي تشوه تكوينها : إما بدافع الطمع او الغرور ، أو لاعتناقها قيم المجتمعات والانظمة الاستغلالية والرجعية . فلنضحك في المسرح ... ولكن فلنضحك على شيء ... وليكن ضحكنا علامة تحدد طريقاً جديدة ... ليكن ضحكنا عميقاً قادراً على تغيير القيم السيئة وانتزاعها من الجذور . فلنضحك من غباء المستغل وقيمه ، ولنغرس في نفوسنا الغضب الساطع ونقسم على ازالة كل العوائق من طريق الانسان في حركته نحو التقـــدم والخير والعدل . نحو الاشتراكية . ويجب الا يفصل المسرح العربي الاشتراكي بين العيوب الاجتماعية واسبابها الكامنة في التربية ، حين كانت أدمغتنا تحشى بقيم المجتمع القديم ، مجتمع الاستغلال والاستعمار والنظم السيئة . ولا يجب ان يفصل المسرح العربي الاشتراكي بين التأخر الاجتماعي والجهل ، الذي يسحق اكثر من نصف شعبنا ويشل فعاليته ،

وبين الاسباب التي انتجت هذا الوضع والتي تكمن في مخططات العقلية الاستغلالية المتحالفة مع الاستعمار لإبقائنا في ظلام الجهل كي يسهل عليها استغلالنا وابقاؤنا تحت نفوذها .

ان المسرح فعّال .. ويملك من الفعالية في الجماهير اكثر بما تملكه دور السينما ، وذلك لتوفر المعايشة الحيّة الخلاقة ، وتوافر النفس الحي بين الممثـــل والمتفرج . يشعر المتفرج في المسرح انه أمام انسان .. امام واقع يمور بالحياة .. أمام حقيقة فنية جذورها في الشارع والبيت والمدرسة والدائرة وفي حنـــايا الضلوع .. امام واقع يفوق الواقع الفعلي تركيزاً ، ولذا فهو يتفاعل ويؤخذ ، ويقع تحت تأثير وسيطرة الفكرة والمضمون الذي يحتويه النص .

وعلينا أن ندرك هذه الفعالية واثرها .. وان ندرك وبنفس القوة مقدار الخطورة فيما إذا اتجه هذا السلاح ضدنا فاصبحت المضامين سلبية هدامة ، ومقدار الفائدة إذا كانت ايجابية إنسانية عميقة . وحين يحرص المسرح على تقديم المسرحيات ذات المضامين الايجابية السليمة المستوحاة من واقع هذا الشعب ومن اساطيره وملاحمه وتراثه ويحقق لهـــا المعاصرة والاطر الفنية الجيدة الملائمة ، يستطيع عندها أن يكون في خدمة النهضة الاجتماعية فيكون جيلاً سليماً صحيح المثل قوي الارادة .

حين يمسح المسرح صور ماشيستي ، والكاوبوي ، وعنتريات فريد شوقي وغيره ممن سمموا روح الشعب .. عند ما يمسح هذه الصور السلبية من أذهان الأجيال ويغرس فيها الايديولوجية الاشتراكية البناءة برسمه نماذج ايجابية ذات قيم ومثل إنسانية سليمة ، عندها يكون في خدمة النهضة الاجتماعية ودعماً للرابطة القومية العربية فعلاً .

المسرح يخدم القضية القومية حين يطور الهلالية ، وعنترة ، والزير سالم، ويخلق منها موضوعات شعبية بناءة وحين تطفر على خشبته نماذج ترتبط بروح هذا الشعب تنبع من تراثه وتلتقي بعذابات واقعـــه المرير وترسم صورة المستقبل مشرقة أمام الأجيال .

المسرح يخدم القضية القومية حين يحمل تجربة شعبنا وروح شعبنا وتقاليده وحضارته ونتاج كفاحه وآلامه ، وحين يوضح ملامح شخصيتنا ويحفظ بفرادتها بين مسارح العالم فيكون رسولنا ومرآتنا ولساننا الناطق .

وعندما يحقق المسرح عندنا ذلك يحقق عالميته وأهميته ويخدم الانسان لأنه بهذا الانتاج انما يغني الحضارة الانسانية ويزيد خصوبة الفكر الاشتراكي ويقدم تجربة ناضجة وقوية لانسان عربي اشتراكي يخوض ثورة في الحقـــل والمكتب والمصنع وفي حنايا الضلوع وعلى جبهات القتال ليرفع عالياً راية الحرية والعدالة .



يجري سحب الاصدار العادي السابع بتاريخ ٣ أيلول ١٩٦٨

الذي أحرق السفن

زكريا تامر

١ ــ الاعتقال :

الأشجار الخضراء في الشارع كفت عن الغناء لحظة تحلق عدد من رجال الشرطة المتجهمي الوجوه حول رجل يمشي على الرصيف سيفاً هرماً ، وتحاً متعباً ، آن له ان يخلد الى الراحة بعد انتصاره في آلاف المعارك ، وابتدره واحد منهم قائلاً له بلهجة فظة : « أعطنا هويتك »

فتقبل الرجل لهجة الشرطي باستنكار ، وأوشك ان يستسلم لحنق عارم ، لكنه اكتفى بالابتسام باستعلاء ، ومد يده الى جيبه ، وأخرج هويته ، وقدمها للشرطي الذي ألقى عليها نظرة سريعة ثم قال متسائلاً : « أنت إذن طارق بن زياد ؟ »

فأجاب الرجل باعتزاز : نعم أنا طارق بن زياد .

عندئذ قال الشرطي ساخراً : هلا تفضلت برافقتنا ؟ .

– الى أين ؟ .
– الى المخفر .
– المخفر ؟ ! ولماذا ؟ .
– مطلوب للتحقيق .
– أنا ؟ أنا طارق بن زياد ؟! .

« لابهمنا من تكون . أنت الآن شخص تقضي الأوامر باعتقالك حياً أو ميتاً » . فقطب طـــارق بن زياد جبينه بينما كان الدم المتدفق في شرايينه رعداً شرساً ، غير انه لم يكد يهم باستئناف سيره حتى طوقه رجال الشرطة وأمسكوا به ، فحاول الإفلات من أيديهم ، فبادروا يضربونه بقسوة وتشفٍ حتى قسروه على الكف عن المقاومة . وتهاوى أرضاً يغمره الخجل والدم .

٢ — الاستجواب :

في اليوم الأول خُلق الجوع ..
في اليوم الثاني خُلقت الموسيقى ..
في اليوم الثالث خلقت الكتب والقطط ..
في اليوم الرابع خُلقت السجائر ..
في اليوم الخامس خُلقت المقاهي ..
في اليوم السادس خُلق الغضب ..
في اليوم السابع خُلقت العصافير واعشاشها المخبأة في الأشجار ..
وفي اليوم الثامن خُلق المحققون ، فانحدروا تواً الى المدن، ويرفقتهم رجال الشرطة والسجون والقيود الحديدية .

ـ طارق بن زياد .. أنت متهم بتبديد أموال الدولة .

ـ مخطئون .. أنا لم أبدد أي أموال .

ـ ألست أنت الذي أحرقت السفن ؟

ـ حرق السفن كان لابد منه لكسب النصر .

ـ لانريد سماع أعذار .

أجب فقط على سؤالنا :

ـ هل أحرقت السفن أم لم تحرقها ؟

ـ أنا أحرقت السفن ..

ـ وأحرقتها دونما إذن ؟ .. لمـــاذا لاتجيب ؟ هل حصلت على إذن من رؤسائك بحرق السفن ؟ .

ـ إذن ؟ ! الحرب تختلف عن الكلام في المقاهي والشوارع .

وتأمل طارق بن زياد بعينين مفعمتين بالازدراء والنقمة وجوه المحققين المحيطين به ، ثم سألهم بهدوء : أين كنتم وقت الحرب ؟

ـ كنا نؤدي واجبنا .

نحن أيضاً حملنا السلاح .

فصاح طارق بن زياد بصوت نزق : حملتم السلاح وجلستم وراء المكاتب تحتسون الشاي والقهوة وتتحدثون عن الوطن والنساء .

فضحك المحققون ثم تعالت أصواتهم جوفاء صارمة باردة :

ـ أنت خائن ...

حرق السفن كان ضربة لقوة الوطن .

ـ من الذي استفاد من حرق السفن ؟ لا أحد سوى العدو .

— تكلم .. السكوت لن ينفعك .

— لدينا الوثائق التي تثبت خيانتك وتعاونك مع العدو .

— الشعب يعرف كيف يعاقب الخونة .

وهجم البحر والأعداء، وامتزجا بصرخة رجل: النجر وراءكم والعدو امامكم. فصاح طارق بن زياد بصوت متهدج : « ولكني أنا الذي هزمت الأعداء » . فقيل له إن مايقوله لاعلاقة له بالتهمة الموجهة إليه .

٣ — مشروع خطبة :

... ومن أجل أن يظل الوطن حراً سعيداً ، عشتم ايها المواطنون الشرفاء مئـــات السنين بلا خبز ، عشتم بلا حرية ، عشتم بلا كرامة ، نسيتم الابتسامة ، كرهتم الورد والقمر وأغاني الحب . فحمى الله اليوم وطننا الغالي من أخطار الخونة المتآمرين مع العدو .

٤ — الاعدام :

هربت النجوم . فهـــاهم قد اتوا ، وفتحوا باب الزنزانة ، ودلفوا الى داخلها جراداً جائعاً . ولم يدهشوا حين ألفوا طارق بن زياد جثة هامدة ، إنما سارعوا ينقلونه الى ساحة المدينة ، وهناك تلوا الحكم باعدامه شنقاً ، ثم سألوه عن رغباته الأخيرة ، فلم يفه بكلمة ، فاعتبروا صمته دليلاً على عدم وجود مايرغب فيه، وبعدئذ تدلى مشنوقاً .

٥ — من مواطن مثالي :

الى السيد مدير الشرطة

خضوعاً لأوامركم ، أرجو السماح لي ان أموت ...

أحبّ دمشق

محفوظ أيوب

الليل يحتضر
والشوارع هادئة الأطوار
ودمشق غفت تحلم
في حضن قاسيون
ترضع صدره العاري
وبردى يروي لليل المنصت
أساطير مجده الغابر
وأنا وحبيبتي هدى نسير بهدوء
على رصيف أبي رمانة
وقد غادرنا مرابع الليل منذ قليل

فصرنا نقطف أزهار الياسمين الأبيض النامي في حدائق المنازل ، ونستنشق عبيره الناعم .

وقادتنا أحاديث الهوى الى بداية حي المهاجرين ، حيث يتعانق أبو رمانة وقاسيون عناقها الأزلي .

فوقفنا نتأمل هذه المدينة الرائعة وهي غافية كأميرة تستلقي بقميص نوم شفاف فوق سرير مخملي ، فأخذت بجمالها وقلت :

– يا حبيبتي ، ما أجمل هذه المدينة ، ما أجمل دمشق . وردت هدى :

– أكاد أغار من حبك لها ، فأنت دائما تتغزل بهذه المدينة .

– لا ، لا ياحبيبتي . ان كثيرا من حبي لهـا قد أخذته من حبي لك ، فدعينا من الغيرة ، وتعالي معي لنرتاح قليلا على ضفة بردى قبل أن نفترق .

– وجلسنا على حافة النهر نرقب دمشق من جديد وأنوارها تشع كأنجم السماء السرمدية .

وفيما نحن غارقون في عناق عذب سمعنا بالقرب منا قهقهة صوت بشري .

فالتفتنا بارتعاش وجزع ، فاذا بعجوز شمطاء تقف بجانبنا مرتدية ثيابا بيضاء فضفاضة ضمها رباط من القماش في الوسط وقد تدلى شعرها الأبيض فوق أكتافها وتناثر على وجه مملوء بالتجاعيد العميقة فقلت بخوف :

– بالله من أنت ؟ وماذا تفعلين هنا في مثل هذه الساعة ؟

وأجابت بصوت عميق مبحوح :

– أنا حارسة هذه المدينة تطربني أصوات أولئك الذين يتغزلون بها ، فأظهر عليهم أحيانا لأزيدهم عشقا لها .

— وهل ... أنت ... بشر ؟

— ما شأنك بذلك أيها الشاب ، هل لك بسماع قصة عجيبة ؟

— وما عساها تكون تلك القصة ؟

— قصة هذه المدينة .

— يسعدنا أن نسمع ذلك .

— حسنا ، انظرا جيدا ، ايها العاشقان ، في هذه الكرة الزجاجية — واخرجت من جيبها كرة بحجم بيضة الدجاجة — وستشاهدان ما هو اغرب من الخيال :

فمنذ عدة آلاف من السنين كان يسكن بالقرب من هذه الارض احد ملوك الجان ، وكانت له حاشية كبيرة واحفاد كثر ، وكان اصغر ابنائه شابا جميل الطلعة ، طيب القلب ، ناعم الحديث ، يدعى دامو ، وقد تعلق قلب دامو بحب فتاة انسية ما شغل بال الوالد عليه ، فحاول بكل الوسائل ان يفرق بينهما ، غير ان حب دامو لحبيبته البشرية كان يزداد يوما عن يوم .

وقد قرر دامو اخيرا ان يختطف حبيبته ويهجر اهله الى ارض بعيدة ، فتواعدا على اللقاء في منزلها ليحققا هذه الغاية وينطلقا من هناك الى مقصدهما .

ولكن الوالد عرف نوايا ابنه ، وخشي ان يكون ذلك سببا في شقائه الى الأبد ، اذ انه متعلق به اشد التعلق ، ولذلك اوعز الى احد اتباعه بخنق الفتاة .

وعندما حان موعد لقاء العاشقين للهرب قصد دامو منزل حبيبته ، وما كاد يدخله حتى اطارت المفاجأة عقله اذ وجد جسد حبيبته ملقى على السرير فاقد الحياة ، فصار يبكي ويندبها بشدة دون ان يجديه ذلك نفعاً . وعندما اقبل الليل

قرر دامو ان يعود الى والده ليرجوه ان يعيد الحياة الى حبيبته .

ولكن الوالد قال لابنه بعد ان لاحظ حزنه الشديد :

— يا بني ، لقد اشقاني حزنك اشد الشقاء ، وانا آسف لموت حبيبتك اشد الأسف ، وليتني استطيع ان افعل شيئا يعيدها الى الحياة ولكن الأقدار لم تمنحنا سلطة احياء الموتى ولذلك انا عاجز عن القيام بأي شيء مجد في هذا المجال الا اذا حدثت معجزة لأن هذا هو الشرط الذي وضعته الأقدار لنا لنستطيع القيام بمثل هذا العمل . وامر حدوث المعجزات ، كما تعلم ، ليس بأيدينا وانما هو ملك قوة اقوى منا . فعليك بالصبر يا بني .

فقنع الولد بكلام والده ، ولكنه طلب منه طلبا آخر فقال :

— ارجوك يا والدي ان كنت لا تستطيع ان تعيد الحياة الى حبيبتي ان تبقي لي جسدها سليما لا يناله الفساد مدة من الزمن حتى استطيع ان اودعها الوداع المناسب .

ورد الوالد :

— اعدك بأن احقق لك ذلك ، وسأبقي جسد حبيبتك سليما الى الوقت الذي تريده ، فان مثل هذا الأمر سهل التحقيق علينا .

فشكر دامو والده على ذلك ، وعاد الى منزل حبيبته ، فحمل جسدها بين يديه وهام في ارض الله الواسعة حتى انهكه التعب في وسط هذه الصحراء ، فوضع جسد الحبيبة على الأرض وجلس بالقرب منه يتأمل فيه ويبكي .

ومرت عدة شهور على هذه الحالة ، ودامو ليس له عمل سوى ان يلتقط بعض الأعشاب ليتغذى بها ثم يعود ليبكي فوق جسد حبيبته .

واستيقظ دامو في صباح أحد الأيام من نومه فاذا به يرى ماء ينساب من بقعة الأرض التي تحت اقدام حبيبته ، وصارت كمية هذا الماء تزداد لحظة بعد لحظة حتى أصبحت نبعاً كبيراً بدأ يتفرع ويجري في هذه الصحراء منساباً فوق الرمال في سبعة فروع .

وحسب العاشق المسكين أن المعجزة قد حدثت وان الحياة سوف تعود الى حبيبته قريباً ، فصار يرقب اعضاءها آملاً ان تتحرك ولكن دون جدوى .

واستمر النهر في جريانه ، وحمل معه الحياة الى الصحراء المجدبة فنبتت الأشجار والورود ومختلف انواع النباتات على ضفتيه .

ولم يلبث ان هاجر كثير من الجن الى ضفافه حيث بنوا لهم مدينة رائعة هناك وعاشوا فيها حياة ملؤها السعادة والهناء . فكان ما يكاد الليل يخيم حتى تنطلق الموسيقى من جميع ارجائها وتخرج فتيات الجن وشبابهم الى الشوارع ليرقصوا حتى الصباح .

وقد علم سكان هذه المدينة ان الفضل في هذه الحياة السعيدة التي يعيشونها يعود الى دامو ، لذلك حاولوا بشتى الوسائل ان يدخلوا البهجة والفرح الى نفسه ويخلصوه من حزنه . فكانت تحضر اليه فرق الانشاد والموسيقى كل مساء لتعزف له الألحان الحزينة وترتل المدائح لحبيبته ، وتقوم بعض بنات الجن برقص تعبدي امامه ، ولكن كل ذلك لم يجعله يتخلى عن حزنه بل بقي جالساً صامتاً بالقرب من جسد حبيبته يبكي عليه .

حتى كان يوم عيد للجان في ذكرى هجرتهم الى هذه الأرض ، فقرروا ان يقدموا لداموا هدية في هذه المناسبة ، وكانت الهدية هي اجمل فتاة من بنات الجان لتكون عشيقة له لعلها تنسيه حبيبته .

فحملوا اليه هذه الهدية واصطحبها جميع سكان المدينة ليرجوه ان يقبلها .

وعندما وصلوا مكانه صارت الجنية الجميلة ترقص رقصاً عجيباً على صوت ناي حزين محاولة لفت نظره وراجية ان يقبلها هدية .

غير انه لم يأبه لها ، فاقتربت منه بعد ان انتهت من رقصها وقالت :

ـ ايها الحبيب داموا هاأنذا قد ارسلت لأكون عشيقة لك ، وأنا أجمل فتيات الجن وأعرقهن نسباً ، فـــاذا كنت لن تقبلني فسأقتل نفسي رداً على تحقيرك لي .

واستمر داموا في صمته ، ولم يتكرم حتى بالرد عليها .

وكررت الجنية رجاءها ثانية دون أن تحظى بجواب .

فاستلت خنجراً من جانبها وطعنت به صدرها ، وصار الدم يتصبب منها حتى اصبحت جثة هامدة ، فعاد الجمع الى مساكنهم وقد حملوا في نفوسهم الحزن والأسى على فتاتهم الجميلة ، والحقد على داموا القاسي الذي استمر في صمته وحزنه .

ومرت أيام فاذا بالدم الذي انساب بين الرمال يصبح كتلة تشبه ثمرة القريز ، وصارت هذه الثمرة تنمو وتكبر حتى أصبحت بحجم القبة الكبيرة ، ومالبثت أن تشققت وصار الدم ينساب منها ويختلط بماء النهر ، فجن جنون سكان المدينة فقام بعضهم بقتل داموا انتقاماً للفتاة وللكارثة التي أوقعهم فيهـا اذ صاروا يشربون الماء ممزوجاً بالدم .

وبلغ النبأ الى مسامع ملك الجن ، فكان أن جند عدداً كبيراً من ابناء عشيرته ، وشن هجوماً عنيفاً على المدينة .

واستمرت المعارك عدة ايام ، فقتل من سكان المدينة من قتل وهرب من هرب ، وبقيت المدينة خالية بعـــد ان حمل ملك الجان جثة ابنه معه الى

بلاده لتدفنها هناك ، وقد سار جنده خلفه يرددون الأناشيد الجنائزية المخيفة ويعزفون الألحان الرهيبة مخلفين وراءهم هذه المدينة الرائعة .

وبقيت المدينة خالية خاوية مئات كثيرة من السنين حتى كان يوم خرجت فيه قافلة كبيرة من بابل مارة بالصحراء فهبت عليها العواصف الرملية الشديدة فضلت طريقها .

وبعد أيام طويلة من الضياع هدأت العواصف قليلاً ، فاذا بمن بقوا من القافلة يجدون أنفسهم على ابواب هذه المدينة العجيبة ، فالتجأوا اليها وقد طاب لهم العيش فيها ، ولا سيما أن ثرة الدم كانت قد جفت ، فسكنوها وتناسلوا فيها ، وكان منهم أجدادكم الذين عمروا هذه المدينة .

وأضافت العجوز :

ـ ولعلكما أيها العاشقان تتساءلان الآن عمن أكون أنا .

ولم يجب أينا ، بيد أنها استمرت تقول :

ـ لن أدع هذا السؤال بدون جواب . فأنا احدى سكان مدينة الجن القديمة ، وقد استطعت أن أختفي عندما غزاها ملك الجن فنجوت من بطشه وبقيت فيها بعد رحيله وسأبقى لأحرس هذه المدينة الى الأبد .

وانطلقت العجوز تقهقه من جديد فاذا بالكرة الزجاجية التي في يدها تتناثر أجزاء صغيرة وتسقط في الماء ، ثم ما لبثت العجوز ان اختفت .

فنظرت الى حبيبتي هدى والدهشة تكاد ان تمزق اعيننا وكأننا قد اصبحنا صماً بكماً . ولكن الشمس التي بدأت تتغلغل في شوارع دمشق أيقظتنا من دهشتنا ، فنهضنا ، وافترقنا ، وسار كل منا الى منزله بدون أية كلمة ، حتى ولا كلمة وداع .

رسالة

سليمان العيسى

« أجبر الفدائيون العرب الطائرة
الاسرائيلية « بوينغ » على الهبوط
في مطار الجزائر .. »

« وكالات الأنباء »

الى ابي الوليدْ
وصَحْبه في الجوِّ ، في براثنِ الخطوْ
يروِّضون صهوة القدرْ
ويقنصون « الأرقم » الحديدْ
يُلقون بالناب الذي يُسمم الحياةْ
في كل أرضٍ عبقتْ بالحب والحياة
في قبضة التحرير . في ملحمة الشرفْ
يُلقون بالناب الذي لايعرف الشرفْ

تاريخُه .. خناجر الظلامْ
تلفُّ وجه الأرض بالظلام

تغتال صفو الأمن والسلامْ
وتزرع الدنيا مناحاتٍ على السلامْ ..

* *

الى أبي الوليد ..
تحيةٌ خضراء كالربيعْ
كدمنا الذي مضى يورقُ بالربيع

تحيةٌ .. من طفلة وليدْ
من خيمة تشمخ في ميلادها الجديدْ
من جسدي المزروع « بالنابالْم »
« لابأس أن تأكلهم حرائق النابالمْ ! »
« العربُ البداةُ .. ولتهتفْ لنا الدُنى .
« اذا أبدنا أمة آمنة هنا .. »

* * *

« لابأسَ » .. وانساب على السحابْ
الارقمُ الحديدُ .. كالشهابْ
يزودُ الغزاة بالدَّمارْ
في ليلة سوداءَ كالجراحْ

تسيلُ .. لاتقشقُ السلاحْ
« لابأس أن تحصدهم زوبعة الدّمارْ »
« العربُ البداةُ .. صحراءُ وخانعونْ .. »
« لن ينبسوا اذا أبيدوا .. نحن واثقونْ .. »[1]

* * *

ويرفعوا بالفوّهة القمرْ
وزوّروا الهتافَ للبشرْ
وأعلنوا الظفرْ ..
وظنّ تاريخ اللصوص انه انتصرْ
ومن رمادِ الموتِ ، من أقبيةِ الفناءْ
تفتحت زنبقة الفداء
تصبُّ في قبورنا الربيعَ والمطرْ
تغسلنا ، وارضنا ، بالعطر والثمرْ
تطهّر الجذور ، والتراب ، والحجرْ

* * *

الى أبي الوليدْ
وصحبه .. في الجو ، في براثنِ الخطرْ
يروّضون صهوةَ القدرْ
ويقنصون « الأرقمَ » الحديدْ
وينفضون العارَ عن تاريخنا الوئيدْ

---

(١) هكذا تصور الدعاية الصهيونية أمتنا العربية للعالم .

تحية الأرض التي تنفست رجاءْ
ساعةَ أنْ تفتحت زنبقة الفداءْ
تصبُّ في قبورنا الربيعَ والمطرْ
تغسلنا ، وارضنا ، بالعطر والشررْ
تلقّن الأذلة الصغارْ ..
نحن الذين نستعير قامة الثوار
من سورةِ الفتحِ حروف نارْ

* * *

الى أبي الوليدْ
وصحبه .. تاريخنا الجديدْ
ميلادنا المجيدْ ..
من بعد أن كفرتْ بالميلادْ
بنبضة الحياة .. بالمعادْ
انا الطريد ، المثخن ، الشريدْ
في وطني .. على ثرى الأجدادْ
انا النزيف المرُّ .. في صحراءَ من حدادْ
تحية .. من ظلمةِ الجدَثْ
من كل قبر هزه الحدَثْ

ياسا كبي الربيع والمطر !

في دمنا.. يامطلعَ السّحرْ!

. . .

طويلة.. في الأرض، في السحاب، في البحارْ
طويلةٌ.. ملحمة الخلاص، سِفْرُ الثأرْ
رائعةٌ إلياذة الأحرار..
وأول الغيثِ.. حساب «الأرقم» الجديدْ
يهمسُ للدنيا.. ابو الوليد..

العودة إلى الجذور الأولى

عمر أبو سالم – عمان

يطالعني بكاؤك كل يوم بعد فرقتنا
فانظر من شقوق الباب ... صوب الغرب
أسأل عنك .. عن تاريخ عودتنا
وأذكر غيبة الأهـــل
ومأتم صبحنا زمن الرحيل .. غداة نكبتنا
ولا أبكي مع الليل
أسافر فيك – يامعصوبة العينين – يامحاولة الشعر
وأملأ صدري المغسول بالأسرار .. والقهر
ولا أسخو بغير توجعي يحنو عليك
يزخ كالمطر

يعريني ... يفل خيوط مأساتي مع الفجر
ويزرعني .. على الجروح
وحيداً مستعار الوجـــه .. منفياً بلا وطن
أفصّل من ثياب الرعب .. والنوح
فصول حكاية صدىء الحوار بها ،
مـــع الزمن
وسدت دونها الأبواب ... اطفئت المصابيح
قبيل الصبح .. وانكسرت مراياها
وبح الصوت خلف شراعها البالي ..
من القدم
وصمت دونها الآذان .. رغم تفجر الألم
وسيقت من ضفائرها على وهج الشموس ،

لصخرة الموت
فوا لهفي على الميلاد والصبح الذي ولى ،
قبيل توهج الصمت
وما شربت سنابلُ قمحه فرحَ المناجل ،
بحّـــة الصوت
وما عادته أسراب الحمائم .. ساعة المغربْ
ترف على تراتيل الحقول .. تحاور الأوراق ،
تسكن في ضلوع الزرْع

وترضع من عروق الأرض غفوتها ،
وتشرب من سواقي الدمع

* * *

ذكرتك والعيون تجوس ساحاتك ..
تسوح بأرضك البكرية الألوان ،
تصهل في نداءاتك
ووجه الصحو منطفىء السمات ،
على أعتاب من رحلوا
وغابوا في حنايا الدور .. في أطراف حاراتك
شربتك بأعيو التوت – في الأنفاس ،
بأصيف الحكايات
وظلت النهار لوجهك النائي .. لعودته ..
لعل خطاك تبرق كالشهاب ،
بليل واحاتي
يخاصر ظلها عشب الثرى المبتل بالغسق
ويعصب جرح من زرعوا بأرض النفي .. من عشرين ،
ضاوا في المتاهات
تهدهد شوقهم للأرض رؤيا لاتبين ،
بعتمة الأفق

ويزهو في طوّي جروحهم ملح المنافي ، وانتشاء الصمتْ
وكيّ الوشم والحُرَقِ
وساقي الحزن .. يترع كؤوس الاحياء كل مساء
ويحسو من خوابيهم .. شراب الموت

* * *

سنزرعها .. عيون الليل بالأقمار .. بالحب
ونغسل ما ترسب في مدار الوجه – يا اماه – ،
من رعب
ولن نحني الرقاب لسيفهم .. لن نشرب الكدرا
وفوق مآدب الظلمات لن نسفح جرار القمح ،
والطيب

نسينا رفــة المنديل .. احرقناه عند مشارف الميناء
ولم نذكر سواك على ثرى الصبح
يقبله .. يزف له البشارة كي يضيء ،

بنوره جرحي

إلى النجمة التي أحبّ

راضي صدوق . الرياض

يا نجمتي التي ولدت في سمائي
رقيقة الخدّين كالبهار ، طفلة الضياء
يا نجمتي الحبيبة ..
أشرقت في سمائي
وألف غيمة بخيلة كئيبة
تحطّ في فضائي ..

ما همّ يا حبيبة
تدرّجي على سياج وحدتي الكئيبة
وذرذري الضياء في غيوبي
تهدّلي كموجة العبير والطيوب
عيناي تشربان ضوءك الكريم

وروحيَ الغريبة
تتوق أن تطير
تتوق أن تشفَّ مثل رعشة النّسيم
لعلّنا هناك نلتقي
على جناح كومة في دارنا الحبيبة
روحان طيّبان .. طاهران كالضّياء
يُزقزقان كلّما أتى المساء
وفي الصباح يرحلان للشواطىء البعيدة

يا نجمتي التي أُحبّ
لقاؤنا على الجراح والرّماح
ـ لقاؤنا الذي أُحبّ
أنا على الطريق راحلٌ إلى المجاهل البعيدة
أُسائل الرّياحَ عن سمائي
زوادتي على دروبيَ الشريدة
خيالك الحبيب
يا نجمتي .. منارتي الوحيدة
في عتمة الدّروب

حبيبتي ..
أُغنيتي التي أُحبُّ
سكبتُ لحنك الشفيف جدولاً في كلِّ قلبْ

تدرّجي على سياجِ وحدتي الكئيبة
لعلّ في جوارنا ينكشفُ القمر
ويفرش الدروبَ بالضياءِ والزَّهَر
أرى على جبينكِ الوضيءِ طلعةَ الصباح
أشمّ في خدّيكِ عنبرَ المساءِ في بلادنا الحبيبة ..
يا نجمتي الغريبة ..

الجولة القادمة

للشاعر الألباني جورجيس فون
ترجمة : صابر فلحوط : صوفيا

يفلحون البحر ،
باللجهل ..
لن تولد ايام الحصادْ ..
يبدرُ العدوان ، أغمارٌ من الليل ،
ومن ثأرِ جحيميٍّ العنادْ ..

– ٢ –

أيها الأطفال ،
يالعنة خيل الفجر ،
ياغيلان ارحام الهزيمه ..
ياخيال الذل ،

ياريح الشياطين الرجيمه .
ياعيون الموز ، والليمون ،
ياحد الجريمه ..
هل ستوتاح جذور الصخر سكرى ،
بالمواعيد الكليمه ؟ ؟
أم ستنهال وعود الثأر ،
تذرو خيمة ، في إثر خيمة ؟

- ٣ -

جيداً ان تسكبوا العطف سيولا
أن تفيضوا الرحمة السمحا ،
نبيذاً وسنابل ..
أن تشنوا غارة المذياع ،
ضد الظلم ،
ان تدموا الخناجر ،
أن تقولوا : لا ، بوجه
الغادر الجبار ، صبحاً ومساء ..
ان تسيل الارض رحمه
لمآسيكم ، وتبكيكم عيون الاصدقاء ..
جيد ، لكن وجه .. الأمس ،
لن يغسل إلا بالدماء ..

أصدقائي ..
نحن من خاض امتحانات ،
المآسي بنجاحْ ..
يوم كان« الظالم النازي »يلهو بالجراح
في بلادي .
يوم كان السجن ، والتشريد،
والقتل مباحْ .
في بلادي ..
يوم هبت لدمار الارضِ
آلاف الرياحْ
نحن خضنا بنجاحْ ..
ثورة الفجر ،
وراح الليل مشلول الجناح

. . .

معكم نحن ،
ولكن انتم ،
كونوا مع الثأر ،
مع الثورة ، ناراً وقضيهْ .
الفدائيون أنتم ، والضحيهْ .
فاحرقوا عن أعين العالمِ ،
ليلَ العنصريهْ .

-٥-

معكم نحنُ ،
وأغمارٌ من الزيتون ،
والسلمِ تغني ، لكمُ ،
في كل شبرٍ . .
ودعاءٌ يملأُ الآفاقَ بالنصرِ ،
لكم يا أصدقاءْ .
وتباشيرٌ بفجرٍ رائعِ الصولةِ ،
تياهِ الضياء . .
فالى نار الفداءْ . .
أيها الصاعدُ للتاريخ ،
ياوعدَ ، جماهيرِ الشقاءْ ،
أيها الحلمُ بجفن الكبرياءْ . .
فجّر الثورةَ . .
مُتْ في الساحِ تولدْ ،
الفَ جيلٍ ،
في ميادينِ الفداءْ .

النظام الجديد للادارة التخطيطية (*)

في تشيكوسلوفاكيا

د. أوتا سيك

ترجمة: د. هشام متولي

بدأ في العام الماضي في الجمهورية الاشتراكية التشيكوسلوفاكية تطبيق نظام جديد للادارة التخطيطية. وكان قد تم اقرار هذا النظام من حيث الشكل ومن حيث المضمون في المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. وكان الاقتراح ان يصار الى تبني تغيير على نطاق واسع بغاية توفير الشروط الاساسية واللازمة لنمو المجتمع الاشتراكي في بلدنا في المستقبل. سنستعرض فيما يلي باختصار الاسباب والاهداف الرئيسية لهذا التغيير، كذلك ملامحه وأهم النقاط التي تميزه.

• • •

(*) تثير القضايا المتعلقة باصلاح النظام الاقتصادي الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي والديمقراطيات الشعبية اهتماماً كبيراً لدى كافة الاوساط الاقتصادية والسياسية في العالم. =

حقق الاقتصاد الاشتراكي التشيكوسلوفاكي نمواً سريعاً جداً في الانتاج ، وبالتالي في مستوى معيشة السكان ، في السنوات الأولى من تطوره . فقد تحقق توسيع قاعدة الانتاج الصناعي بالاعتماد بصورة خاصة على إحداث مصانع جديدة ، وتوسيع المشاريع القائمة ، وامتصاص الصناعة لليد العاملة التي تزايدت بشكل ملحوظ ، وخاصة بسبب اشتغال الريفيين فيها ، وتشغيل النساء اللواتي كان عملهن مقتصراً في الماضي على شؤون تدبير المنزل . وهكذا فان زيادة الانتاج قد تحققت بجزء كبير منها بالاعتماد على التوسيع الممتد لقاعدة الانتاج والعوامل المستخدمة فيه ، وكذلك بالاعتماد على زيادة انتاجية العمل التي كانت ذات معدل مرتفع ، وخاصة في السنوات الاولى .

ولكن هذا المعدل الأصلي لزيادة انتاجية العمل تعرض لانخفاض تدريجي فيما بعد . وكانت الاسباب الرئيسية لهذا الانخفاض ان الاقتصاد التشيكوسلوفاكي بمجموعه يشكو من نقص التجديدات والاساليب الحديثة في الاساس التقني للانتاج ، كذلك كون التجهيزات والآلات أصبحت قديمة تدريجياً (١) .

ونظراً لكون المصانع القائمة المتوفر فيها اختصاصيون ناقصة التجهيزات ، فان الجزء الاكبر من الأموال الاستهلاكية والتراكمية قد وجه نحو تمويل تأسيس مصانع ومعامل جديدة وتوسيعها . على انه حتى بالنسبة لهذه الانشاءات الجديدة لم تكن الآلات والتجهيزات التي زودت بها ، على الاغلب ، ذات مستوى تقني قادر على تحسين « تكنولوجيا » الانتاج ، وفي الوقت ذاته لم يكن العاملون على درجة كافية من الخبرة والاختصاص نظراً لكون القسم الأكبر من العمال قد ألحق مجدداً بالعمل الصناعي . وكان

= ولعل هذا البحث من أهم الابحاث التي خصصت لهذا الموضوع في التجربة الجديدة في التطبيق الاشتراكي في تشيكوسلوفاكيا . وكاتبه من كبار الاقتصاديين الاشتراكيين المنادين بالاصلاحات الجديدة، ونشر بحثه هذا في مجلة: Analyse et Prévision . Paris . Mai 1968

(١) ان من السهولة تأييد هذه الاستنتاجات بالاحصاءات وتحليلها . ولكن د. سيك لن يقوم بذلك هنا لتجنب الاطالة ولأن الغاية من هذا البحث عرض المبادىء الناظمة للادارة التخطيطية الجديدة وتبرير الأخذ بها . وان النظرة التاريخية المختصرة التي نوردها هنا بخصوص القضايا المتعلقة بالماضي هي فقط لاعطاء القارىء فكرة عامة عن الاسباب التي أدت الى ادخال النظام التخطيطي الجديد وضرورة الاسراع بوضعه موضع التنفيذ .

من نتيجة هذه المظاهر مجتمعة أن مستوى انتاجية العمل في المعامل الجديدة ، حتى بعد سنوات من ممارستها نشاطها ، بقي على الأغلب أدنى من ذاك الذي تحققه المعامل المنشأة قديماً .

اذا كانت هذه الاسباب أدت على صعيد الاقتصاد القومي الى بطء زيادة انتاجية العمل ، فان هذه كانت رغم ذلك متحققة . على ان جزءاً متزايداً من حصيلة زيادة الانتاج الذي يحققه العامل كان يقتطع لتمويل العمليات التثميرية ، أي أنه كان هناك عبء متزايد في كافة المشاريع التثميرية بالنسبة للوحدة الاضافية للانتاج المادي . هذا بالاضافة الى انه كانت هناك بصورة عامة مردودية متناقصة بالنسبة للتثميرات ورؤوس الأموال الأساسية . وانه اذا كان حجم التثميرات يتزايد بصورة أسرع بكثير من الانتاج الاجتماعي بشكل عام ، فان ذلك ليس نتيجة كلفة مرتفعة ناتجة عن ادخال أساليب تقنية جديدة تبشر بانقاص حجم العمل الحي أو عمل العمال ، بل ناتجة عن انتاجية متناقصة للمشاريع التثميرية المتزايدة كمياً أو عددياً . وهذا يؤدي الى تخفيض متزايد للانتاجية العامة للعمل الاجتماعي ، ولمردودها ، وذلك على اعتبار ان العمل المتحقق هنا يحسب على اساس العمل الحي أو عمل العمال .

وقد أدى تطور الانتاج بشكل عام ، والنقصان المتزايد للموارد المخصصة للتنمية ، وعدم كفاية التقدم التقني ، والمعدل المتباطىء لانتاجية العمل ، والانخفاض السريع لفعالية الاموال المخصصة للانتاج ، أدى ذلك كله لا إلى انخفاض الدخل القومي وحسب ، بل ايضاً الى انخفاض مستوى معيشة السكان . وفي الوقت ذاته ظهر عدم توافق جلي ومتزايد بين الانتاج والحاجات . فتركيب انتاج السلع الاستهلاكية أصبح أكثر فأكثر غير متوافق مع طلب الجمهور من جهة ، ومن جهة ثانية فان صنع الأدوات الانتاجيـــة بدوره لم يستجب لحاجات المنتجين . وهكذا فان النتيجة كانت تراكم المخزون من السلع غير المفيدة وغير القابلة للتصريف في الوقت ذاته الذي لم تشبع فيه الحاجات ، بل اكثر من ذلك ، فان الانتاج المتحقق لم يكن يقدم للسوق إلا القليل من المنتجات غير المعروفة والأحسن صنعاً والقادرة على خلق حاجات جديدة وزيادة الاستهلاك .

في بلد متقدم صغير نسبياً كبلدنا يضطره وضعه المتمثل بشح المواد الاولية فيه وبضيق السوق الداخلية بدرجة كبيرة ، الى مبادلة جزء متزايد من دخله القومي عن طريق تجارته الخارجية ، يؤدي الأمر الى وقوع نتائج كثيرة الضرر . وفي الواقع فان سعر الكلفة الذي ينخفض بدرجة أبطأ من انخفاضه في أغلب بقية البلدان الصناعية ، وتركيب

الانتاج والعرض الذي لايستجيب بمرونة الى التغيرات السريعة للطلب في الاسواق العالمية، والتقدم البطيء جداً لنوعية ومستوى المنتجات من الناحية الفنية ، وضآلة عرض المنتجات الجديدة والجذابة ، تؤدي جميعاً وبصورة اكيدة ، وبدرجات متزايدة ، الى تعرض التجارة الخارجية للخسائر . كذلك فان ضرورة زيادة الصادرات بصورة مستمرة من أجل التمكن من استيراد المنتجات الضرورية ، تؤثر بصورة سلبية على نمو الدخل القومي . ورغم زيادة الصادرات هذه فانه كان من المستحيل خلال السنوات الاخيرة ، التغلب على عجز ميزان المدفوعات وتأثيره الضار على زيادة الانتاج .

* * *

كشفت الدراسات التحليلية المتعمقة أن السبب الرئيسي لهذه الاخطاء والعيوب يكمن في النظام العام للتخطيط وادارته ، هذا النظام الذي لم يعد متجاوباً أبداً ، وخاصة في السنوات الاخيرة ، مع مستوى التطور الاقتصادي الذي بلغــه البلد . ولا بد من الدخول في التفاصيل الكشف عن المظاهر القديمــة للنظام القديم في التخطيط وإدارته وصلتها السببية مع الصعوبات الاقتصادية البادية للعيان في الوقت الحاضر (١) .

لنقل باختصار هنا أن هذا النظام بوضعه الزيادة الكمية للانتاج هدفاً رئيسياً كان غير قادر على أن يحقق الحد الأقصى من فعالية تطور الانتاج ، وتحسين نوعيته ، وان يشجع تجديد البرامج ويبث روح الابتكار فيها بصورة دائمــة ، وأن يدفع بمرونة الى ادخال تغييرات هيكلية على الصناعة . إن الفعالية الانتاجية، وتحسين النوعية ، والتجديد والابتكار في البرامج ، والتغييرات المرنة للتركيب الهيكلي للانتاج ، هي أمور لا يمكن فصلها عن المضمون التقني للانتاج ، وبذلك لا يمكن تأمين تحقيقها إلا من قبل الوحدات الاقتصادية المكلفة بعمليات الانتاج .

إن أياً كان من خارج جهاز الانتاج ليس بقادر أن يتصور الطرق والاساليب التقنية والتكنولوجية التي تكون أكثر ملاءمة للعمليات الصناعية والقادرة على تحقيق الحد الاقصى من الربح نتيجة للنفقات المصروفة . ان المنشأة التي تقوم بعملية الانتاج هي وحدها القادرة على كشف وابراز كافة الامكانيات المؤدية الى تحسين الانتاج ، وعلى تبني البرامج اللائقة وتكييفها بصورة مستمرة وبمرونة مع طلب المستهلكين الذي هو عرضة لتغيرات دائمة . إن الجهاز الذي يدير المنشأة ، من مهندسين وفنيين وباحثين ، وكذلك

(١) للراغب في زيادة في الشرح والتفصيل أن يراجع الكتاب الجديد للدكتور سيك
Plan and market under socialism, Prague, 1968.

دوائر الدراسات ووضع المشاريع ، والمبتكرون والخلاقون في هـذا المجال ، إن هذا الجهاز وحده قادر على [تأمين تطوير المضمون التقني والنوعي للانتاج وفعاليته وتنميته. ونتيجة ذلك من أجل فسح المجال للمبادهة ، يجب أولاً منح المنشأة أو المنشآت امكانية وسلطة التقرير واتخـاذ القرارات ، وثانياً ربط مصالح جهازها ونظام الحوافز فيها بالتطور المرغوب .

ولكن النظام السابق في الادارة التخطيطية لم يكن ليؤمن ، بصورة عامـة ، للمنشأة لا الامكانية ولا المصلحة لتطوير الانتاج على هـذا النسق ، بل كان يدفعها على العكس الى الركون الى انه ليس من المصلحة المبادهة باتباع طرق وأساليب أكثر فعالية ، أو باكتشاف احتياطيات متوفرة ، أو بتضمين البرامج غالبـاً منتجات جديدة ، أو بتغيير الوسائل التكنولوجية في الانتاج ... الخ .

يقوم هذا النظام على انه انطلاقـاً من الجهاز المركزي للتخطيط نحو المنشآت ، يكون التوجيه مبدئياً في الزيادة المستمرة لحجم الانتاج ولكافة المؤشرات الكمية في الامد القصير ، بالاضافة الى أن المؤشرات المعتبرة نوعية (انتاجيـة العمل ، أرباح ، سعر الكلفة ...) تجبر بدورها المنشآت على زيادة انتاجها بقدر ما يمكن من السرعة (ومثال ذلك : إنه بالقدر الذي تدخل فيه تحسينات وتجديدات على البرنامج قيد التنفيذ ، تكون فيه إنتاجية العمل بحسب الخطة وتعليماتها ذات نتائج سيئة ، والعكس صحيح) . لقد أصبح من الامور المألوفة منذ السنة الاولى أو الثانية لتنفيذ الخطة ظهور عدم التوافق بين المهمات المرسومة في الخطط الخمسية وبـين الواقع الاقتصادي ، الامر الذي يؤدي بالضرورة الى تعديل الخطط السنوية . وعلى هذا الاساس كان توجيه الانتاج عملياً يتم على أساس الخطط السنوية ، وبذلك فانه يفتقر للنظرة البعيدة المدى والضرورية للتطور . وما دامت الخطة السنوية التي يفترض تنفيذها توفير مقـدار معين من الاجور ، هي دوماً حصيلة مناقشات ومصالح متنافرة بين الجهاز المركزي للتخطيط والمنشأة ، فان هذه الأخيرة هي التي تنتصر اذا تمكنت بحذق من اخفاء ما لديها من احتياطيات بغاية أن يطلب منها تنفيذ خطة سهلة التنفيذ نسبياً ، الامر الذي جعل المنشآت تعير اهتمامها فقط الى النتائج الكمية المتحققة في الامد القصير . ولا شك أن هذا السلوك يتعارض كلياً مع الامكانيات الفعلية لخلق حوافز انمائية أكثر فعالية واكثر اهتماماً بنوعية الانتاج .

ومن الخطأ الاعتقاد بأنه يمكن إصلاح هذا الوضع فقط عن طريق جعل الخطط أكثر واقعية أو عن طريق مراقبة نوعية المنتجات من قبل أجهزة مستقلة . اذ أن هذه

النظريات قد اتبعت في تجربتنا التخطيطية وكانت نتيجتها الوحيدة أنها أدت الى الأخذ بالخطط السهلة التنفيذ والى إفراط في المراقبة من خارج المنشأة . على انه لا يمكن لا للخطط السهلة التنفيذ ، ولا لبعض الحوافز التشجيعية التي تمنح في حال تجاوز حجم الانتاج المحدد في الخطة ، ولا لشبكة واسعة من المراقبة الخارجية ، لا يمكن لها جميعها أن تبدل من مصلحة المنشأة في ان تزيد انتاجها الكلي في الامد القصير ، كما لا يمكن لها أن تشجعها على زيادة في الانتاج بفعالية أكبر بحيث يبلغ فعلاً الحد الامثل .

وانا إذا كنا نفهم من تعبير الحد الامثل التطور المنسق بصورة دقيقة لكافة مظاهر الانتاج (نمو متوازن لحجوم الانتاج ، حد أقصى من العائدية والفعالية ، التحسين النوعي للمنتجات) ، ليس فقط على أساس الاقتصاد الاجمالي للبلد ، بل أيضاً على صعيد الاقتصاد الجزئي في المنشأة ، فانه لا يمكن تشجيع المنشأة على تحقيق هذا المعدل الأمثل لا عن طريق نظام المؤشرات الكمية الخالصة ، ولا عن طريق نظام المؤشرات المتناقضة الذي لا يمكن عملياً تنسيقه في الجهاز المركزي للتخطيط .

لقد دلت تجارب اعادة تنظيم وتبديل نظام التخطيط والادارة التخطيطية أن طريقة الخطط السهلة التنفيذ ، وطريقة التحديد الكمي للانتاج ، تجعلان دوماً من مصلحة المنشأة البحث عن تحقيق زيادة سريعة في الانتاج بالاعتماد على موارد متوفرة (وذلك كالاكثار من العمليات التثميرية ، واستخدام الطاقات الجديدة وخاصة اليد العاملة ، والاعتماد على كثافة العمل) في حين تحدد بحدها الادنى عمليات تجديد المنتجات وتبديل الطرق والوسائل التكنولوجية . وانه نظراً لكون الجهاز المركزي للتخطيط لا يستطيع ان يكشف عن امكانيات في التطور أكثر فعالية واقرب الى التحسين النوعي داخل المنشأة ، أي عدم قدرته على تحديد معالم تطور انتاجها بشكل أمثل . ونظراً لكونه يحاول في الوقت ذاته أن يقيم صلة تحكمية بين المصالح الخاصة للمنشأة (الاجور أو العلاوات) والمؤشرات الكمية للانتاج التي يقوم هو بتحديدها ، فانه انما يوجه بدوره اهتمام المنشأة نحو هدف واحد أبعد مايكون عن أن يمثل الحد الامثل : وهو اما مصلحة المنشأة في تحقيق مؤشر تقريري واحد في انتاجها (انتاج خام ، انتاج سلع ، انتاج صافي ...، الخ) ، أو مصلحتها في ان تحقق عدة مؤشرات مختلفة . وفي كل الاحوال فانه ليس هناك ما يشجع المنشأة على اختيار الحل الأفضل والأمثل في الانتاج ، بل على العكس فان هناك مايمهد لها لاختيار اسهل الحلول (غالباً لأمد قصير ، وباتباع طرق غير كثيفة المردود) التي من شأنها أن تؤمن لها افضل العلاوات بتحقيقها بعض المؤشرات المطلوبة ، وان تم ذلك

على حساب مؤشرات اخرى . هذا بالاضافة الى ان وضع المؤشرات المطلوبة هذه إنما كان قد تم تحت تأثير مصالح المنشأة بعد مناقشتها لدى اعداد الخطة مع الجهاز المركزي للتخطيط .

ان أي جهاز للرقابة لم ينجح ابداً في بلدنا في ان يكشف عن الامكانات الحقيقية لزيادة الانتاج بصورة اكثر فعالية واكثر اهتماماً بالنوعية المنتجة اذا لم يكن المشروع نفسه (أو المنشأة) صاحب مصلحة في الكشف عن هذه الامكانيات . هذا بالاضافة الى أن أياً من أجهزة الرقابة ليس في مستوى ليحل محل المستهلك ليقيّم المنتجات التي يعرضها المنتجون ، وتنوع هذه المنتجات ، وقضية أسعارها ، وما يتعلق بالاستعاضة عن بعضها بالآخر . وانه مادام المستهلكون غير أصحاب تأثير مباشر على الانتاج ، وعلى امكانية الخيار بين مجموعة من المنتجين ، وامكانية رفض المنتجات غير الصالحة أو ذات النوعية العادية ... الخ ، فان الذي يتحكم بالمصانع هو مصلحتها في الانتاج بحسب الكميات المحددة في الخطة ، وبذلك فانها تفرض انتاجها على المستهلكين ، ولا يكون هناك من دوافع اقتصادية لجعل المنتجات تبلغ الحد الامثل .

ان هذه الدراسات والتحليلات والتجارب أدت بنا الى تقرير ضرورة ادخال تغييرات وتبديلات أساسية وجوهرية على اسلوب وطريقة وضع الخطط الاقتصادية ، وضرورة زيادة الخبرات في المنشآت وأعطائها سلطة التقرير بكل مايتعلق بعمليات الانتاج ، وضرورة الأخذ في الوقت ذاته بالعلاقات النقدية والتجارية وتطبيقها من أجل ايقاظ مصلحة المنشآت لأن تعمد على تحقيق بلوغ الحد الأمثل في انتاجها . فالامر يتعلق اذن بالتوصل الى فكرة تركيبية جديدة واشتراكية عن الخطة والسوق ، مصحوبة بشروط ملائمة لتطور الانتاج بشكل أمثل في المصانع من جهة ، وأخذ مصلحة المستهلكين بعين الاعتبار من جهة ثانية .

مما لاشك فيه انه لايمكن الكشف عن طريق آلية السوق لوحدها عن الحاجات المستقبلة ونسب الانتاج الاجتماعي في المجتمع ، لذلك فان التطور الطويل الامد لهذه الحاجات والنسب يجب أن يكون موجهاً على اساس خطة اقتصادية .

وبالمقابل ، يبدو انه في ظل مستوى معين من مراحل النمو يكون من المستحيل ، في حال افتقاد العلاقات التجارية ، تنظيم الانتاج بشكل فعال وجعل مصالح المستهلكين تلعب دورها . وهذا يعني انه بالاعتماد على الخطط الاقتصادية الشاملة والاجمالية للاقتصاد

القومي التي يضعها الجهاز المركزي للتخطيط ، وبالاعتماد على الصلة والتفاعل المباشر بين المنتجين والمستهلكين، يصبح من الممكن للانتاج أن يتطور ليبلغ حده الامثل المتجاوب مع مصالح المجتمع بكامله .

* * *

ان النظرية الماركسية في الوقت الحاضر توافق على ضرورة قيام صلة وثيقة بين الخطة والسوق في ظل الاقتصاد الاشتراكي . من المؤكد أن لهذا التفكير النظري المجرد أعداؤه دوماً . ولكن أغلبهم يولي اهتماماً ضئيلاً لحل النزاعات الحقيقيــة التي تظهر في الاقتصاد الاشتراكي، ويفضل توجيه اهتمامه نحو البحوث المجردة عن « القوانين الاقتصادية». ومع ذلك فان النقطة الهامة في الموضوع هي البحث عن اشكال وطرق فعلية وعمليــة لتطبيق هذه الصلة بين الخطة والسوق في الاقتصاد الاشتراكي . ان النظام الجديد للادارة التخطيطية الذي يطبق تدريجياً في تشيكوسلوفاكيا هو أحد هذه الاشكال . والغاية منه إدخال التصحيحات الضرورية على اقتصادنا ، كالتغييرات الضرورية في مجال التركيب الهيكلي للانتاج ، ورفع انتاجيته الى أعلى حد ممكن ، وتشجيع الاهتمام بشكل مستمر بنوعية السلع المنتجة .

ولئلا تدفع الخطة بالمنشآت ، عن طريق نظام المؤشرات القسرية ، الى تطوير الانتاج بشكل ممتد وكمي ، فانه لابد من ادخال تغييرات أساسيــة على مفهوم الخطة وطريقة اعدادها .

وهكذا فانه يجب في المستقبل ألا يتم الجهاز المركزي للتخطيط إلا بوضع الخطط ذات الأجل المتوسط (الخطط الخمسية) والبرامج للأجل الطويل (من ١٥–٢٠ سنة) أما الخطط ذات الأجل القصير (سنوية أو أقل) ، فيجب أن تهيأ من قبل المنشأة أو مجموعة منشآت . وتقتصر مهمة الجهاز المركزي للتخطيط بالنسبة للخطط القصيرة الأجل على مراقبة تنفيذها لمقابلة ومقارنة ذلك مع الخطط الاجمالية على صعيد الاقتصاد القومي وذات الأجل المتوسط .

أما البرامج التي يهيئها الجهاز المركزي للتخطيط فيجب أن تتمثل بالتنبؤات عن التطور الاقتصادي في الأمد الطويل . ولا بد لهذه التنبؤات من أن تعتمد على تحليل الاتجاهات الاساسية التي تظهر في تطور حاجات المجتمع (كمستوى المعيشة وطرازها ... الخ) ، وفي العوامل التي تؤثر على سير الانتاج (كالتبدلات التقنية ، الموارد من المواد الاولية والطاقة ، وضع السكان ... الخ .) .

ولا يمكن اقتصار هذه التنبؤات على مجرد دراسة وتحليل التطور السابق ، اذ بالاضافة الى ضرورة وقوفها على المؤشرات المتعلقة بالعوامل القسرية التي تحد من التنبؤ ، لابد لها من الاعتماد على الدراسات التحليلية والمقارنة .

وانه بدون التنبؤات هذه يستحيل أن يتم في الوقت اللازم تحقيق اتجاه نحو تحسين نوعية الانتاج . وانه بدون برامج طويلة الامد يستحيل مثلاً إعادة النظر بصورة أساسية في قطاع الطاقة في البلاد ، وإعادة تنظيم طرق تهيئة العمال ، والتنظيم العلمي التقني لسير العمليات الانتاجية ، والتخصص في مجال البحوث العلمية ... الخ . كذلك فانه لايمكن الكلام بصورة جدية عن الادارة التخطيطية للتطور الاجتماعي في البلاد دون اللجوء الى خطط وبرامج موضوعة لأمد طويل .

ان الخطط الخمسية التي تجسد البرامج الطويلة الأمد في فترة زمنية أقل ، هي في الواقع خطط ارشادية أو توجيهية مع درجة معينة من القسر او الاجبار . والمهمة الرئيسية لهذه الخطط هي أن تقدم للمنشآت الصورة الضرورية عن التطور الاقتصادي الاجمالي للبلاد كما هو متوقع خلال الفترة الخمسية ، وذلك بالاعتماد على مؤشرات ذات طابع توجيهي (كزيادة الانتاج القومي ، والدخل القومي ، والمال المتراكم ، وحجم التثميرات ، الطاقة الفعالة لدى اليد العاملة ، وانتاجية العمل ، ومعدلات نمو مختلف قطاعات الانتاج ... الخ .)

وباستثناء عدد قليل من المؤشرات التي تهم مثلاً في صنع بعض المنتجات الضرورية والتي تنص الخطة على أن انتاجها يجب أن يكون الزامياً ، وذلك خلال فترة تحددها الخطة ، فان بقية المؤشرات لاتعطى للمنشآت الا على أساس أنها توجيهية أو ارشادية . (١)

وتمكّن الخطة المتوسطة الأجل ، الموضوعة على صعيد البنيان الاجمالي للاقتصاد القومي ، مجموعة المنشآت من أخذ فكرة عن الاتجاهات الاساسية الحاصلة في ظل التطور

---

(١) ان الخطة السنوية لعام ١٩٦٧ للانتاج الصناعي لم تحدد ، على صعيد الاقتصاد القومي ، سوى سبعين هدفاً ذات طابع قسري من حيث حجوم الانتاج (بلغت هذه الاهداف ١٢٠٠ عام ١٩٦٦) . وسيؤدي زوال الخطط السنوية المركزية في المستقبل الى الغاء جميع المهمات الاجبارية في صناعة بعض المنتجات ، أو أنها تظل قائمة على أساس أنها طلبات لحساب الدولة .

العام ، ومن ان تحدد بصورة أكثر تفصيلاً علاقاتها الانتاجية والاستهلاكية مع بقيـة القطاعات المرتبطة معها . وهكذا فان هذه الخطة ان توزع ، كما هو الحال حتى اليوم ، بين مختلف المنشآت من قبل الاجهزة القطاعية التي تدخل في زمرتها ، ولكن يكون لكل مجموعة من المنشآت الحق في أن تضع خطتها الخمسية الخاصة بهـا ، والتي لابد وأن تكون أكثر واقعية بسبب الاعتماد في وضعها على معرفة التطور الاقتصادي العام كما هو مرسوم في الخطة المركزية والدراسات ذات الطابع التوقعي .

وان مهمة الحكومة الرامية الى تحقيق الأهداف التي تشملها الخطة المركزية ، تأخذ حيز التنفيذ بالاعتماد ليس فقط على عدد محدود من المؤشرات القسرية ، ولكن أيضاً وبالدرجة الأولى على نظام كامل من الوسائل والادوات الاقتصادية . وعلى هذا فان تحقيق هذه الاهداف يتعلق بصورة خاصة بمدى واقعيتها وتلاؤمها مع الحاجات الفعلية للتطور الاقتصادي .

فالامر يتعلق اذن ، لدى وضع الخطط الخمسية ، بالطرق التي يمكن اتباعهـا والتي تمكن من التنبؤ ، وفق أفضل المعايير ، بالحاجات الفعليـة ، ومن معرفة الامكانيات الاكثر فعالية لتحقيق التنمية الاقتصادية في المستقبل ، أكثر مما يتعلق بالتنفيذ القسري للخطـة وبأي ثمن ، الامر الذي لايؤمن تحقيق التطور الاقتصادي الامثل .

وقبـل الكلام عن الطرق والاساليب الجديدة في التخطيط تجب الاشارة باهتمام الى العلاقات التجارية والتغيرات الناتجة عنها في مجال المصالح المحركة للمنشأة . وفي الواقع ان هذه التغيرات بدورها يجب أن تساهم في تطوير التخطيط المركزي ذاته .

* * *

انه في ظل النظام السابق للتخطيط تتعلق إمكانيات المنشأة في تلبية حاجات الاستمرار في الانتاج وزيادته بتنفيذها للخطط المفروضة عليها ، ولا يهم بعد ذلك إذا كانت قد نجحت أم لا في تصريف منتجاتها ، أو أن تبيعهـا وسطياً بأسعار تقل عن سعر الكلفة ، أو أن تفرضهـا على الزبائن سواء بطريقة اقتصادية أو بالطرق الادارية .

أما الآن ، أي في ظل الاصلاح الجديد ، فيتوجب على المنشأة أن تؤمن حاجاتها

للاستمرار في الانتاج وزيادته من مواردها الخاصة . وبذلك فان طريقة قيام الجهاز المركزي للتخطيط،بتأمين النفقات اللازمة للاجور ورأس المال العامل وبعض التثميرات تتلاشى تدريجياً لتحل محلها طريقة اخرى هي واجب المنشأة في أن تسد حاجاتها من واردات مبيعاتها فقط .

إنه بعد اقتطاع النفقات المادية والاهتلاكات من ميزانية المنشأة يتبقى ما يسمى بالدخل غير الصافي (وهو ما يعادل من الناحية النقدية الانتاج الصافي) . ويتوجب على المنشأة أن تقتطع من الدخل غير الصافي هذا ثلاثة أنواع من الضرائب وتدفعها للخزينة العامة للدولة : ١ً– اقتطاع يفرض على الاموال العائدة للانتاج ٢ً– اقتطاع من الدخل غير الصافي ٣ً – اقتطاع بغاية التثبيت .

يتمثل الاقتطاع المفروض على الاموال العائدة للانتاج بالرصيد الصافي للاموال الاساسية ، أي الآلات (٦٪) ،وقيمة المخزون بالنسبة للاموال الدائرة . واذا ازدادت الاموال الدائرة بالاعتماد على سلف تحصل عليها المنشأة ، فانه يتوجب عليها أن تدفع معدل فائدة قدره(٤٪) .ويعادل الاقتطاع من الدخل غير الصافي ١٨٪ منه،بعد الاقتطاع المترتب على الاموال العائدة للانتاج . أما اقتطاع التثبيت فهو وسطياً بنسبة ٢٪ من الدخل غير الصافي ، ويتغير تبعاً لزيادة انتاجية العمال ، وبدرجة اقل مع زيادة الربح الوسطي .

ويجب أن تحقق هـذه الاقتطاعات بعض الاهداف الاقتصادية . فالهدف الأول تأمين موارد للميزانية المركزية ، أي المساهمة في اعادة توزيع جزء من الدخل المتحقق لصالح المجتمع . ومن الاهداف ايضاً ربط سياسة انتاج المنشآت بطلبات الجمهور،وممارسة ضغط اقتصادي على المنشآت المتأخرة . والاقتطاع المفروض على الاموال العـائدة للانتاج يجبر المنشأة على ان تستغل وسائل الانتاج المتوفرة لديها أفضل استغلال . ويهدف الاقتطاع بغاية التثبيت الى زيادة كلفة اليد العاملة ، ويدفع بالمنشأة لتحقيق وفورات بهذا الخصوص . ان هذا الاقتطاع لايحد من زيادة الاجر المتوسط ، ولكن يدفع الى استعمال الاجور التي تم توفيرها عن طريق التخفيض النسبي لبعض المصاريف من أجل زيادة أجور بقية العمال . وفي الوقت ذاته يجب أن يؤمن هـذا الاقتطاع للميزانية المركزية مورداً يمكن من زيادة الاجور في القطاع الثالث او قطاع الخدمات ، وذلـك بصورة متناسبة مع زيادة الاجور في قطاعات الانتاج .

ويبقى الجزء المتبقي من الدخل غيرالصافي بعد تنزيل الاقتطاعات، تحت تصرف

المنشأة التي يتوجب عليها ان تستعمله لصرف علاوات العمال ، وتمويل بعض العمليات التثميرية ، وإحداث صندوق للاحتياطات وصندوق لتأمين الحاجات الثقافية والاجتماعية. أما عن توزيع الدخل غير الصافي داخل المنشأة فهو من اختصاصها وحدها ، ولا يحق لأجهزة مركز الادارة التخطيطية التدخل الا بصورة غير مباشرة بخصوص سياسة الأجور والعمليات التثميرية التي تقوم بها المنشأة .

تتألف اموال أجور العمل من الاجور الاساسية والمساهمة في دخل المنشأة . تقوم المنشأة ذاتها بتحديد مقدار الاموال المخصصة للاجور على اساس جدول تعرفات الاجور الذي تنشره الدولة . وهكذا فان المنشأة في بداية كل عام تقوم بتحديد الشروط الفعلية لأجور العمل في الميزانية الجارية ، وذلك بالاعتماد على الجدول المذكور وضمن حدود الاتفاق بين ادارة المشروع او المنشأة ومنظمتها النقابية . اما مقدار المساهمات في الدخل فتتعلق مباشرة بالنتائج الاقتصادية التي حققها المشروع او المنشأة : فكلما كانت هذه النتائج حسنة ، كلما كانت المساهمات اكبر . واذا كانت المساهمات الممنوحة عام ١٩٦٦ تبلغ ٢،٦٪ من اصل مجموع الاجور والعلاوات ، فانها ستبلغ بحسب التقديرات ٥،٦٪ عام ١٩٦٧ ، وانها يمكن أن تبلغ ١٠٪ في سنوات قادمة ، بل وأكثر من ذلك. ويكون توزيع المساهمات بين العمال مختلفاً بحيث ان المدراء المسؤولين والعمال النشيطين يكون نصيبهم منها اكبر .

ويحتفظ بجزء من الدخل غير الصافي لتمويل توسيع المنشأة وتأمين ما تحتاجه من نفقات لتحسين الاساليب التقنية والطرق العلمية . وقدر انه في السنوات الاولى من تطبيق النظام الجديد لاتحتل وسائل التمويل الذاتي الا جزءاً ضئيلا لسد الحاجات، وذلك بسبب انه حتى اول عام ١٩٦٧، لايمكن للمنشآت أن تحتفظ الا بجزء صغير من اموال الاهتلاكات ، يخصص لعمليات صغيرة في مجال الحاجات التثميرية . فهي لاتتصرف تصرفاً كاملاً الا بالاهتلاكات المقتطعة من الاموال الاساسية المستخدمة بعد التاريخ المذكور . وعلى هذا فان التقدير هو انه اذا ما احتاجت المنشأة لبعض العمليات ذات الاهمية – كتجديد التجهيزات القائمة او وضع تجهيزات جديدة ضرورية لسير انتاجها – فانها تلجأ بصورة خاصة الى الاستلاف . وبما أن المصرف هو الذي يحدد امد التسديد الذي يكون اقل بكثير من حياة الآلات المشتراة مثلاً ، فانه لا يكون امام المنشأة سوى الاعتماد على اموال الاهتلاكات وجزئياً على المخصصات المرصودة للعمليات التثميرية الدائرة من أجل تسديد الاقساط السنوية للمصرف .

وهذا يعني انه لم يتم اللجوء للاستلاف لأمد طويل من أجل تسديد الجزء الاكبر من

قيمة التجهيزات . وفي الواقع فانه خلال عام ١٩٦٧ كانت المنشآت تملك مقادير من أموال التمويل الذاتي تتجاوز كثيراً الارقام المنتظر بلوغها . فقد استعملت السلف خلال العام المذكور بنسبة ٢٢٪ من العمليات التثميرية ، في حين أن ٦٢٪ تم تأمينها من التمويل الذاتي ، و ٦٠٪ من منح الميزانية المركزية. وانه في وضع كهذا نقول ان سوق العمليات التثميرية كان تحت تأثير تجاوز الطلب للعرض ، وهو خلل تحاول السياسة الاقتصادية ازالته باتخاذ التدابير الملائمة .

وفضلا عن ذلك فان مصلحة المنشآت هي زيادة دخولها غير الصافية حتى تبلغ الحد الاقصى . وبالمقابل فانها تحاول بقدر الامكان التقليل من الاقتطاعات الثلاث المذكورة. ونظراً لكون هذه الاقتطاعات محسوبة بشكل موضوعي ، فان تخفيضها النسبي يكون من صالح المنشأة التي تحاول ان تستغل طاقات الانتاج والعمل حتى حدودها القصوى وذلك بغاية الحصول على نسبة تكون بصالحها بقدر الامكان بين الدخل غير الصافي والاقتطاعات المحسوبة على أساسه .

ونضيف ان منطق النظام الاقتصادي الجديد في الادارة التخطيطية يؤدي الى قيام نزاع بين المصلحة الآنية للمنشأة — حيث تحاول أن تؤمن لموظفيها أعلى علاوات ممكنة — ومصلحتها للأمد الطويل حيث يتوجب توسيع المصنع وتطويره . والمنشأة التي لا تحتفظ الا بمبلغ غير كاف لتمويل العمليات التثميرية، فانها تكون غير قادرة على تجميع الموارد اللازمة لتزيد في المستقبل انتاجية العمل وبالتالي دخل العامل . ولكن يبدو من التجربة الجديدة ان المنشآت تفضل الاحتفاظ بالمبالغ لتمويل عمليات التثمير وليس لصرفها بدون ضوابط لزيادة علاوات العمل ، وذلك بغاية تأمين تطور مستقر .

* * *

ومن السهولة بمكان ملاحظة أن مصلحة المنشأة في تحقيق الحد الاقصى من الدخل غير الصافي تقترن بآلية تنظيم الاسعار وضبط حركاتها نظراً لما تحتله من اهميـــة بالغة . واذا كان السعر يؤثر تأثيراً جوهرياً في ظل النظام التخطيطي السابق على تركيب المنتجات لبعض برامج الصناعة (منتجات ذات أسعار مرتفعة نسبياً الى جانب استهلاك كبير للمواد وعائدية هامة ، الامر الذي من شأنه تسهيل تنفيذ خطة الانتاج غير الصافي) ، فان دوره اكثر وضوحاً في ظل النظام التخطيطي الجديد . على أنه يجب وضع مفهوم عام والانطلاق منه : وهو أن يجري عن طريق السعر الربط بين مصلحة المنتج ومصالح

المجتمع او المستهلكين ، ودفع المنشأة وترغيبها في تحقيق الانتاج الضروري اجتماعياً ، وان تكف عن انتاج السلع غير المرغوب فيها كما كان عليه الامر في السابق .

فيجب ان يؤدي نظام الاسعار بالدرجة الاولى الى دفع المنتج وترغيبه بصنع كافة المنتجات الضرورية المتضمنة درجة عالية نسبياً من العمل الحي او عمل العمال ، ومن تشغيل الآلات . ولابد لنظام السعر من التجاوب مع هذا الوضع ، حيث يحسب الربح بنسب معينة ، على اساس علاقته بقيمة الاموال المخصصة للانتاج (من الرأسمال المثمر) وعلاقته بالاجور الاساسية الضرورية . وبما ان المنشأة ملزمة بأن تسدد للخزينة العامة مقداراً هاماً من دخلها متناسباً مع قيمة اموالهـــا المخصصة للانتاج ، وبأن تمول عمليات تثميرية عن طريق التمويل الذاتي ، فان طريقة حساب السعر على اساس القيمة وتعدل عائدية محدد فقط على أساس مجموع الاجور ، لايمكن ان يؤدي الا الى الحد من التوسع التقني للمنشأة والى تقليص الجهود التثميرية . وبالمقابل ، فان حساب السعر على اساس مراعاة قيمة الاموال المخصصة للانتاج ، وكذلك الاجور ، ينشط ويحفز على انتاج كافة المنتجات التي تهـــم المجتمع ، كائناً ما كان بنيان او تركيب العوامل المؤثرة في الانتاج .

ان الانتقال الى هذا النموذج من تشكل السعر يهم المنتجين بالدرجة الاولى لأنه يمثل حافزاً بالنسبة لهم ، ويتعلق من ناحية أخرى وبالتالي بأسعار الجملة ، أي الاسعار التي يبيع بها المنتج الى المنشأة التي تستعمل انتاجه . وقد تم هذا الانتقال بموجب نظام اصلاحي عام . وانه اذا كان من الصعب الدخول في تفاصيل هذا النظام هنا ، تكفي الاشارة الى ان وضعه قد تم وفقاً لاحدث الأساليب والطرق العلمية ، وفي أقصر وقت ممكن . ومن البداهة الاشارة الى ان هذا الاصلاح سيؤدي الى ادخال تصحيحات اساسية وسريعة على العلاقات الرئيسية بين المجموعات العديدة جداً للاسعار (٢٥ الف مجموعة) والى انه بذلك يضع حجر الأساس لتشكل الاسعار في المستقبل بصورة أقرب الى الواقع. وهذا أمر لاغنى عنه من أجل أن يتمكن هـــذا النموذج في حساب السعر من تحديد الاتجاهات الاساسية لتطور الأسعار .

وانه اذا كانت آلية تشكل السعر هذه تهدف الى ايجاد الدافع ذاته لصنع كافة المنتجات الضرورية ، فانه يجب في الوقت ذاته خلق مصلحة او دافع اكثر تأثيراً لصنع المنتجات النادرة نسبياً ، والمنتجات غير المتوفرة والأحسن صنعاً . وفي هذا المجال يجب ان يكون سعر هذه المنتجات ، ولو مؤقتاً ، أعلى من السعر العادي للانتاج . والعكس

صحيح . أي أنـه من الضروري ان تنخفض أسعار المنتجات الفائضة نسبياً او غير المرغوب بها الى أقل من سعر الانتاج ، وذلك بغاية دفع المنتج الى التقليل من انتاجها ان لم نقل الاستغناء عنه . إن هذا التأرجح للسعر حول سعر الكلفة هو العامل الوحيد الذي يمكن له ان يربط بشكل منسق أو أن يوازن بين مصلحة المنتج ومصلحة المستهلك ، وان يحقق العرض المستمر للطلبات في السوق ، وذلك بالقدر الذي يتم فيه تحسين نوعية الانتاج ووضع برامج انتاجية جديدة .

لو أن الجهاز المركزي للتخطيط كان قادراً على ان يؤمن حركات الاسعار هذه ، الضرورية اجتماعياً والمتميزة بالمرونة ، دون تأخير إداري (بيروقراطي) وتحمل أخطاء الاحكام الشخصية ، فلا شك أن هذا يكون الحل الافضل . ولكن في أيامنا هذه ليس هناك من جهاز مركزي قادر على أن يحدد بمرونة وعلى أسس موضوعية كافة التغيرات الفعلية للطاقات التي تدخل في تشكل سعر الكلفة لكافة المنتجات الفردية (إنه يوجد في تشيكوسلوفاكيا مثلاً حوالي ١,٥ مليون سعر حقيقي) ، وان يقيم كافة مظاهر الاكوام من المنتجات ، وان يستبدل أذواق المستهلك بذوقه ، وان يختار بدلاً عنه المواد والسلع البديلة الملائمة . وما هذه التقديرات والاعتبارات في الواقع إلا مجموعة من العوامل تؤثر على تشكل الروابط الفعلية بين العرض والطلب ، وعلى النسب الضرورية للفوارق بين سعر البيع وسعر الكلفة . وانه لهذا السبب لا يمكن لأي جهاز مركزي أن يحل حالياً محل التفاعل الحي للعرض والطلب في السوق ، وذلك بالنسبة لكافة أسعار السلع ، وأن كان قادراً فقط على تحقيق ذلك بالنسبة لعدد محدود جداً للأسعار الرئيسية لأم المنتجات، وذلك بغاية توجيه حركاتها بأقل أو أكثر حذقاً .

أدت هذه الاسباب في تشيكوسلوفاكيا الى تصنيف الاسعار في الزمر التاليـة : زمرة صغيرة يتبع تحديـد الاسعار فيها الى الادارة المركزية (أم المواد الاولية ، المحروقات ، الطاقة ، أم السلع الصناعية الاستهلاكية ، والمواد الغذائية الاساسية) . زمرة تحدد لأسعار المواد فيها حدود عليا . وليس للمركز من عمـل في هذا المجال إلا تنظيم مستواها العام تبعاً لبعض الضوابط التجارية في تحديد السعر ، على أن تترك حرية تشكل حركات الاسعار الفعلية ضمن نطاق المستوى العام للاسعار . وزمرة ثالثة تتشكل أسعار السلع بموجبهـا بشكل حر ، أي على أساس العرض والطلب . وليس للجهاز المركزي في هذا المجال سوى مراقبة تطبيق بعض القواعد العامة الصالحة في مجال تشكل الاسعار ، ويدخل في هذه الزمرة بصورة خاصة السلع الترفيهيـة ، وكذلك الخدمات ومنتجات القطاعات التي تتعرض لمزاحمة شديدة ... الخ .

فالموضوع يتعلق اذن بتبني نظام التشكل الحر نسبياً للاسعار الفعلية ، تشكل ينتظم ضمن نطاق اعتبارات اقتصادية تعتمد على تفاعل العرض مع الطلب في السوق . ولكنها تعتمد في الوقت ذاته على توجيه حركات المستوى العام للاسعار وضبطهـا ، وذلك بغاية منع حدوث تضخم ، الامر الذي يتشكل تلقائياً في جو من حرية العرض والطلب . وانه اذا كان لهذا التنظيم الاجتماعي للسعر ، المعتمد على اعتبارات اقتصادية ، أن ينجح ، فلا بد له أولاً من أن يعتمد على الشروط الاقتصادية المرسومة والصالحـة أو الملائمة لجعل الاتجاه العام لسعر الكلفة يتشكل في حدود ونحن سير عملية تشكل الاسعار التجارية المتوازنة . وبتعبير آخر ، فان خلق الشروط الاقتصادية من هـذا النوع يعتمد على خلق الشروط الملائمة والمساهمة في خلق حركة العرض والطلب في السوق ضمن إطار الاقتصاد الاشتراكي . إن خلق هذه الشروط يستوجب توفر صلات أو روابط متقابلة بين مختلف دورات الاسعار ، وتشجيع المنافسة التي تؤثر على الانتاج، ودفع التنمية المخططة بشكل متوازن على صعيد الاقتصاد القومي .

أما فيما يتعلق بالروابط التي يجب اقامتها بين مختلف دورات أو تقلبات الاسعار ، فلا بد أولاً من ازالة العزلة المتقابلة لأسعار المفرق والجملة ، وكذلك بين الاسعار الداخلية والخارجية (في الاسواق الاجنبية) . وانه اذا لم توجد هذه الروابط فان سوق العرض والطلب تكون غير قادرة على التأثير على الانتاج وصبغـه بالطابع التجاري . وقد خطت تشيكوسلوفاكيا اولى الخطوات في هذا المضمار في العـام الماضي ، ولكن ماهو اساسي سيطبق في المستقبل .

فلا بد أولاً من تحويل الضريبة التفاضلية على رقم الاعمال– كما هو معمول بها الآن– الى ضريبة موحدة ، وربط حركات أسعار المفرق بأسعار الجملة . فاذا ثبتت مثلاً ضرورة رفع سعر المفرق لمنتوج مالا يؤمن انتاجه في الامد الطويل حاجات الطلب ، فلا بد من العمل ايضاً بصورة ملائمة على رفع سعر الجملة ، وذلك بغاية تشجيع المنتج على انتاج هذا المنتوج ، وبغاية أن تتأمن له الوسائل المالية الضرورية . من المؤكد أن انخفاض اسعار المفرق والجملة للمنتجات الفائضة او التي لايجري تصريفهـا ، يؤثر بشكل عكسي على الانتاج . وانه من اجل تجنب تغيرات مفاجئة في مجال صلات اسعار المفرق فيما بينها ، فلا بد من الانتقال الى نظام فرض الضريبة ذات المعدل الوحيد على رقم الاعمال بطريقة واعية ولأمد طويل ، والعمل في الوقت ذاته على ازالة تدريجية للفوارق الكبيرة الحالية للضريبة المطبقة داخل مجموعات متزايدة من المنتجات .

انه من أجل أن تتمكن السوق من التأثير على الانتاج لصالح المستهلكين ، وجعل الانتاج ملبياً لتطور وتبدل الطلب ، فلا بد من تشجيع المنافسة التجارية بين المنشآت واتباع سياسة اقتصادية ضد الاحتكارات او الانحصارات . ذلك ان المنشآت العاملة في ظل الاشتراكية والمتمتعة بانحصار او احتكار الانتاج في ميدانها تحاول ان تفرض مصالحها الخاصة وتؤمنها وتهمل بالمقابل مصالح المستهلكين . واذا كان هؤلاء تحت رحمتها ، فانها تجبرهم على شراء المنتجات التي يسهل عليها انتاجها ، وان كانت لا تلبي حاجاتهم ورغباتهم، وبذلك فانها لا تهتم الا جزئياً بتطوير منتجاتها والابداع او الابتكار في ميدانها . انه لا يمكن لأية مراقبة خارجية أن تزيل مثل هذه الاوضاع التي لا يمكن ازالتها الا عن طريق دفع المزاحمة او المنافسة التجارية الاشتراكية .

انه لا بد لكل زبون (منشأة انتاجية او تجارية) من التمكن من اختيار بصورة حرة ، وان يشتري احسن السلع بأرخص الاسعار . وعلى هذا فانه اذا لم تشعر المنشأة الاحتكارية او الانحصارية بتأثير المزاحمة او المنافسة ، واذا كان المستهلك مرتبطاً بمصدر وحيد ليشتري من عنده (بالاضافة الى كون هذا البائع متمتعاً بحق التوزيع الاداري للمنتجات) ، فانه من المستحيل ازالة الآثار الضارة لأية منشأة احتكارية ، بالاضافة الى أن ذلك من شأنه الحد من التقدم التقني وتطوير تنويع المنتجات الاستهلاكية. فلا بد اذن من اتخاذ تدابير ضد الوضع الاحتكاري ، وتشجيع المنافسة بين المنشآت في بلدنا . وهذه مشاكل لا بد من ايجاد حلول لها .

ومع ذلك تجدر الاشارة الى انه بالنسبة لبلد صغير كتشيكوسلوفاكيا لا يمكن دوماً دفع عجلة المزاحمة او المنافسة الضرورية ، لذلك لا بد من أن يقوم بهذا الدور وبدرجات كبيرة قطاع التجارة الخارجية . ولا يتم ذلك طبعاً باللجوء الى حماية الانتاج الداخلي (الا في بعض الحالات المبررة) ، ولكن بتعريض هذا الانتاج بقدر الامكان الى المنافسة القاسية من طرف الاسواق الخارجية بحيث يصبح من المحتمل بقدر الامكان التغلب على ظاهرة نقص الفعالية ونقص التبادل مع هذه الاسواق ، وبحيث يصبح من الممكن جعل التجارة الخارجية أداة تسام في نمو الدخل القومي .

وانه لتحقيق هذه الغاية لا بد من القيام بعملية التقريب التدريجي لعلاقات الاسعار الداخلية بالاسعار في الاسواق العالمية ، وتحويل الاسعار الخارجية بالسعر الفعلي لنقدنا الى دخول المنشآت والمؤسسات التي تقوم بعمليات الاستيراد والتصدير . ومن البداهة الاشارة الى هذا الوضع الجديد في الصلات والروابط الواجب اقامتها بحذر ودقة بين

تباين للأسعار . وجملة القول يجب اثارة انتباه منشآت الانتاج ومؤسسات التجارة الخارجية الى فعالية آثار التجارة الخارجية ، كما يجب الغاء نظـام التخصيص الاداري للمنتجات المستوردة ، هذا النظام الذي يجب ابداله بالشراء العـادي للعملات الاجنبية من قبل المستورد ، بسعر تعادل تحدده الدولة في ضوء ميزان المدفوعات ، وبتمكين المستهلك من الاختيار الاقتصادي بين منتجات بلده والمنتجات ذات المصدر الاجنبي .

وتجدر الاشارة في النهاية الى أن الأداة التي يكون لها اكبر الأثر في تسيير عمليات السوق هي التشجيع المخطط للتوازن الاقتصادي الاجمالي للبلد . ويبدو ان هناك رابطة او علاقة منطقية بين الخطة التي تهدف الى تحقيق مثل هـذا التوازن من جهة ، والسوق من جهة ثانية . وفي الواقع إنه يكاد يكون مـن المستحيل تحقيق السير الحسن لعمليات السوق دون تخطيط التوازن الاقتصادي . وبالمقابل فانه من المستحيل التوصل الى هذا التوازن دون الاعتماد على آلية السوق . لذلك لا بد لهذين العاملين من أن يسيرا جنباً الى جنب ويؤثر أحدهما في الآخر .

هذا ، وبما أن خلق شروط تجارية هي مشكلة جديدة للاقتصاد الاشتراكي ، لذلك كان يجب تفسيره اولاً في ضوء المثال التشيكوسلوفاكي ، ومن ثم يمكن العودة الى وضع الخطط الهادفة الى تحقيق التوازن الاقتصادي الاجمالي .

ان النظرية القديمة للاقتصاد الاشتراكي كانت ترى ان هناك تعارضاً مطلقاً بـين الخطة وآلية السوق . وكانت تعتبر ان جوهر التخطيط يكمن في التحديد العقلاني والمدروس لمقادير الانتاج في توافقها مع الحاجات . والجهاز المركزي للتخطيط في المجتمع هو الذي يقوم بعملية التحديد هذه ، وذلك على عكس ما يجري في السوق، حيث يتشكل هذا التحديد تلقائياً نتيجة لتفاعل العرض مع الطلب . ولكن النظرية بوضعها هذا قـد تركت جانباً الامور الاساسية التي لا تمكن من تخطيط تحقيق مقادير الانتاج في حال عدم قيام السوق بدورها مـن قبل جهاز مركزي واحد ، أو مجموعة من أجهزة الخطة المتمتعة بأحدث الوسائل التقنية والحسابية .

وفي الواقع فان جوهر الموضوع يكمن في أن تنشيط تحقيق مقادير أو نسب الانتاج المحددة في الخطة ، دون الاهتمام وبصورة مستمرة بتبني المتغيرة الاكثر فعالية في تطور الانتاج (سواء على صعيد الاقتصاد القومي أو على صعيد المنشأة) ، ليس في الواقع التطور الضروري اجتماعياً والمرغوب لهذه النسب في المجال الانتاجي . اذ في الواقع هناك العديد من المتغيرات التي يمكن تطبيقها في ميدان تطور الانتاج ، كما يوجد

العديد جداً من السلع أو الطاقات البديلة (استبدال سلع بأخرى ، نوع من التقنية في الانتاج بأخرى ...) ، وكل متغيرة تقنية لتطور الانتاج تستوجب توفر نسبها الخاصة من هذا التطور . وان الوسيلة الوحيدة لنجاح أي اقتصاد هي تلك القادرة على خلق شروط من شأنها وضع المتغيرات الاكثر فعالية في مجال التطور ، وتحقيق نسب الانتاج المقابلة لها ، موضع التطبيق .

على ان المنشآت المنتجة وحدها هي القادرة على تحقيق تطوير الاساليب التقنية وتحسين المنتجات وتنويعها . ان مصلحة هذه المنشآت في تحقيق التطور الاكثر فعالية بالاضافة الى عامل المبادهة ، هما العاملان الوحيدان القادران على تحقيق النسب او المقادير الفعلية في مجال الانتاج ، هذه النسب او المقادير التي لايمكن تحقيقها بالاعتماد على القيود الادارية التي تحد من التبديلات المفيدة في مجال الانتاج وتثبط العزائم . ان هذا المفهوم الاساسي هو جوهر المشروع الرامي الى اعادة النظر بشكل جـــذري في الطرق التي ستوضع على أساسها الخطط في الجمهورية الاشتراكية التشيكوسلوفاكية (١) .

وهكذا فانه في داخل كل قطاع - يجب على المنشآت والتروستات ان تعمد بصورة دائمة الى دراسة مختلف المتغيرات المستخدمة في التطور المقبل للانتاج ، سواء بالنسبـــة للمنتجات التي سيجري انتاجها (تسجيل منتجات جديدة في البرنامج ..) ، او بالنسبة للوسائل والطرق التكنولوجية اللازمة .

ان العوامل الوحيدة المؤدية لحساب المتغيرات الاكثر ملاءمة للتطور هي تفاعل سعر الكلفة مع سعر السوق بالاضافة الى المصلحة الفعلية للمنشأة لادخـــال تغييرات دائمة على الانتاج (تحقيق الحد الأقصى من الدخل غير الصافي بالنسبة لمجموع تكاليف الاستثمار) . وان الدوافع التي تشجع المنتج على البحث عن متغيرات اكثر ملاءمـــة للتطور، وتعطي امكانية وضع خطط خمسية بمفهومها الامثل للاقتصاد القومي بجملته تعتمد بصورة رئيسية على تقرير المنشآت ووعيها الفعلي بأن مستقبل بيع منتجاتها ، وتطور دخول عمالها ، يتعلقان بتحقيق الشروط الملائمة في ميدان الانتاج .

انه بالاعتماد على الدراسات الاقتصادية والتقنية ، المنظمة بشكل مستمر من قبل

---

(١) ان طرق ومبادىء التخطيط الجديد يجري وضعها في هذا التحليل كفرضيات ، وذلك لأن تطبيقها بصورة كاملة على الخطط الطويلة الامد لايمكن ان يظهر في الخطة الخمسية ١٩٦٦ — ١٩٧٠ التي تمت تهيئتها عام ١٩٦٥ .

المنشآت والتروستات ، وعلى أساس التعاون الوثيق بين الهيئة المركزية للتخطيط وهذه المنشآت والتروستات ، يمكن وضع خطط للاقتصاد القومي بجمله ، من شأنها تنسيق الانتاج (الموارد) وجعله متجاوباً مع الحاجات ، وخلق الشروط الصالحة لتطور الانتاج على صعيد الاقتصاد القومي بأكبر درجة ممكنة من الفعالية .

وبالاعتماد على الابحاث التي تضعها المنشآت حول مختلف الامكانيات والطاقة في مجال التطور ، يتوجب على مركز التخطيط أن يضع التقديرات الاولية عن النمو الممكن للدخل القومي وتوزيعه ، عن بعض المنتجات التي يجب ان يتصف انتاجها بالتمركز ، وان يحدد الاقتطاعات التي يجب أن تدفعها المنشآت للخزينة العامة ، وعن حجوم التثميرات ومقادير الاعتمادات الموزعة ، وعن فعالية وآثار هذه التثميرات ، وعن تطور الانتاجية الاجتماعية للعمل وتطور الاسعار الناشئة عن ذلك ، وعن تبدلات الدخول النقدية للسكان ، وعن التغيرات الاساسية التي تطرأ على الطلب . ويمكن للمشاريع الفعلية والواقعية للمنشآت ان ترتكز وتعتمد على هذه الاعتبارات او التقديرات الموقتة. وان الدراسات الاولية لمعرفة الاتجاهات وتحولاتها في السوق الداخلية ، والتنبؤ بالاسعار ، ومعرفة الاقتطاعات التقريبية التي يجب دفعها للخزينة المركزية ، ونظام منح الاعتمادات الطويلة الاجل .. الخ ، تمكن جميعها المنشآت من حساب الحد الادنى لفعالية أو آثار تثميراتها القادرة على ان تجعلها تؤدي واجبها تجاه الدولة ، وان تسدد الاقساط السنوية المترتبة عليها ، وان تتنبأ بمقدار زيادة الاجور والعلاوات للعمال والموظفين لديها .

ان تهيئة الخطة يجب ان تتم على اساس التقديرات المتدرجة نحو الصحة . أما برامج التثمير الاكثر واقعية التي تقدمها القطاعات ، فيجب ان تكون موضع بحث ودرس من الهيئة المركزية للتخطيط ، بحيث تحدد فعاليتها الاقتصادية اولا ، وتذكر بدقة التقديرات التي يضعها الجهاز المركزي للتخطيط عن التطور الاجمالي للاقتصاد القومي ثانياً .

وفي حين انه لايمكن للمنشأة ان تعالج المواضيع إلا من زاويتها (نمو الدخل غير الصافي تبعاً لتبدل نفقات الاستثمار) ، فان مهمة الجهاز المركزي للتخطيط دراسة التثميرات المشتقة من برنامج مقدم (برنامج القطاع آ يمكن له ان يولد تثميرات في القطاعات ب ، ج ، د بصورة مكلفة وغير منتجة لدرجة يكون من الأفضل على الصعيد القومي صرف النظر عن هذا البرنامج) . ان هذه الدراسة للفعالية او المردودية الاقتصادية على صعيد الاقتصاد القومي للبرامج التي تضعها مختلف القطاعات ، والتي

تهدف ، بالاعتماد على أحدث الطرق المتبعة في المحاسبة القومية ، الى معرفة الضوابط المادية التشميرات (اي التنسيق فيا بين القطاعات) ، تؤدي الى إستبعاد بعض البرامج واعطاء الأولوية او الأفضلية لأخرى . ولكن يجب ألا يرفض الجهاز المركزي التخطيط بطريقة ادارية اي برنامج يقدم له : اذ يجب دفــع المنشأة لأن تستنفد طاقاتها بأعلى درجاتها ، وذلك ضمن شروط دقيقة من الناحية التمويلية ، او تستبعد البرنامج باستبعاد التسليف المخصص له .

ان هذه الطريقة في العمل تمكن من وضع خطة اجمالية للاقتصادالقومي ومتوازنة وتؤمن تحقق التطور الأكثر فعالية للتركيب الهيكلي الاجمالي للاقتصاد القومي ، وتؤمن تحقق التنسيق الطويل الأمد بين مصالح الجهاز المركزي للتخطيط ومصالح المنشآت . وانه من الجلي الاشارة الى ان مثل هذه الخطة لاتفترض تحديد المهمات القسرية للفترة الخمسية ، اذ لايمكن لأي جهاز تخطيطي ان يجمع المعلومات الكافية والقيام بمثل هذا العمل . ومع ذلك فانــه من الأهمية بمكان أن تسمح التشميرات التي ستنفذ بتوليد امكانيات وطاقات تمكن في المستقبل من انتاج الكميات التي تحدد الحاجة اليها في الخطة الاقتصادية الاجمالية بشكل توجيهي . وانــه اذا كان الانتاج الفعلي السنوي (استثمار الطاقات المتوفرة) يزيد او يقل عن تنبؤات الخطة المركزية ، فان هذا الأمر يتعلق بالطلب وبالخطط السنوية التي تضعها كل منشأة على حدة .

وبغية جعل الدخول تبلــغ حدودها القصوى ، فان المنشآت والتروستات ستضطر بصورة دائمة الى دراسة تطور الطلب الفعال وتحولاته في داخل البلد وخارجه ، والى دراسة السوق والتسويق ووضع خطط قصيرة الأمد . كذلك فان التعامل بــين المنشآت يقوم على اساس التعاقد التجاري ، وذلك باستثناء بعض الفترات الاولى لبدء العمل والتي تتطلب توزيعاً مركزياً لبعض المواد او المنتجات الناقصة . ولكن نظــام التوزيع هذا الذي يحدده الجهاز المركزي للتخطيط يجب ان يؤول الى الزوال عندما تتوفر المواد والمنتجات الناقصة .

ان الشرط الأولي لحسن سير آلية السوق ، وبالتــالي إضعاف هيمنة وسيطرة المنشآت الاحتكارية ، هو في تغير العلاقة بين العرض والطلب لصالح هذا الاخير . اذ أن الأمر يتعلق باستبدال سوق البائع بسوق المشتري .

ففي حــين ان النظام القديم للتخطيط كان متميزاً بأن الطلب يزيد دوماً على العرض . الأمر الذي نشأ عنه عدم توازن مستمر في مجال الانتاج وارتباط المستهلك به ،

فان النظام الجديد في التخطيط يرمي الى قلب هذا الوضع بفسح المجال امـــام قيام سوق يتفاعل فيها العرض والطلب بشكل طبيعي . فالمنتج والبـــائع يكسبان المستهلك او الزبون على اساس نوعية الانتاج المعروض ، وبأسعار معقولة ، وعلى اســـاس التطوير والتحسين المستمر لما يعرضانه من سلع ، الأمر الذي لايمكن ان يتحقق الا اذا كان العرض يزيد على الطلب . وانه من اجل التوصل الى مثل هذا الوضع يجب اتباع سياسة شديدة وقاسية غايتها عدم وضع وسائل نقدية ، بأيدي السكان ، لايكون لها مقابل من البضائع في السوق . كذلك فانه في مجال قطاع التثميرات يجب اتباع سياسة ضد التضخم النقدي.

ولا يكاد يتم تنفيذ الخطـــة في الماضي حتى يتبع ذلك تقديم دفعات نقدية بمقادير كبيرة . ولكن المنتجات المتوفرة في السوق لم تكن تتجاوب مع الطلب الفعال ، او هي بضائع مكدسة لم يتم تصريفها ، أو أنها تباع بسعر أقـــل من سعر الكلفة ليجري تصريفها ، وذلك فيما عدا حالات البيع التي تتم في جو فقدان السلع المطلوبة . ان هذا الوضع بحد ذاته يؤدي الى خلق سوق البائع . أما في المستقبل – وبموجب النظام الجديد للادارة التخطيطية – فان المنشأة ان تتمكن من دفع الأجور الا بعد تحقيق الانتاج وعرض منتجاتها في السوق وتعرضها ليس فقط للمزاحمة او المنافسة الداخلية ، ولكن ايضاً لمنافسة السلع الاجنبية بالاعتماد على سياسة تزايد الاستيراد بشكل مستمر . وان الحاجة لمقابلة الأجور المدفوعة بالبضائع الضرورية في السوق هي من الاسباب التي ادت الى الغاء التخطيط الاداري المتعلق بالأموال المخصصة بالأجور ، وتبني نظـــام الحافز او الاهتمام بالدخل غير الصافي في المنشأة .

أشرنا انه ، بموجب النظام الجديد ، لايمكن دفع الاجور الا بعد عرض السلع في السوق. وان تبني سياسة تثميرية تؤدي الى سرعة أكبر نسبياً في معدل انتاج السلع الاستهلاكية يغـــير بالضرورة وضع عرض السلع في السوق ، ويزداد العرض بسرعة أكبر من زيادة الطلب .

وفي مجال السياسة التثميرية هذه ، وفيما يتعلق بعلاقة العرض بالطلب ضمن نطاقها ، يجب وضع واتباع نظام شديد وقاس في مجـال حركة الاعتمادات (تسديد أسرع نسبياً ، سعر فائدة أعلى) ، وذلك بغية تقليص الحجم الاجمالي للتثميرات ، وبالمقابل رفع مستواها التقني وفعاليتها . وان نتيجة تدابير كهذه هي الاقبال المتزايد عـــلى تحسين المنتجات بشكل جيد ، وعلى فعالية الانتاج في مجال الميكانيك ، والعمران وقطاعات أخرى مشابهة . وفي الوقت ذاته فان هذه السياسة تؤدي الى تباطؤ سرعة منح الاجور ، الامر

الذي يؤدي الى حصول ضغط نسبي ومرغوب للطلب على السلع الاستهلاكية في السوق. ومن الطبيعي الاشارة الى ان الفعالية المتزايدة للتشبيرات يجب أن تقابل تقلص حجمها وتعوض عنه ، وان تمنع تباطؤ الانتاج ، وان تؤدي ، على العكس ، الى زيادة سرعة معدل نمو الانتاجية الاجتماعية للعمل .

ورغم انه بموجب النظام التخطيطي الجديد تقوم المنشأة بوضع خطط الانتاج للامد القصير ، فان وظيفة الجهاز المركزي للتخطيط يجب ان تستمر نظامياً في مراقبة التطور الاقتصادي والربط بين سير هذه الخطط والخطة الاقتصادية الخمسية الشاملة لمجموع الاقتصاد القومي . وعندما تظهر فروق هامة بين الخطة والواقع الاقتصادي ، فانه يجب اختيار أحد العاملين المتناوبين التاليين : يجب إما ادخال تعديلات على الخطة الخمسية ، او بعض اهدافها على الاقل ، وذلك لجعلها متطابقة مع الواقع ، واما التأثير على التطور الفعلي للاقتصاد القومي لتغيير بعض الاتجاهات في مجال نشاطات المنشآت ، أو ادخال بعض التغيرات على بعض مظاهر التطور .

ان التحليل النظامي الدقيق للوضع الاقتصادي ، المعتمد على الاحصاءات وعلى معرفة الاتجاهات الاساسية فيه ، ومقابلة ذلك باستمرار بأهداف الخطة ، وباتباع اسلوب مرن في تطبيق مجموعة الوسائل والادوات الاقتصادية ؛ ان هذا التحليل وحده يمكن الاجهزة المركزية في مجتمعنا الاشتراكي من ممارسة سلطة فعلية على الاقتصاد القومي ، ومن ازالة المفارقات الكبيرة الموروثة من الماضي بين الخطة والواقع الاقتصادي .

ان هذا النظام الجديد هو الطريق الحقيقية المؤدية لازدهار جديد للاقتصاد الاشتراكي .

مشكلة الحقيقة

في الفيزياء الحديثة (*)

بقلم : م . أوملیانوفسكي

عضو أكاديمية العلوم السوفيتية .

ترجمة محمّد حافظ أيّوب

جوهر المشكلة :

ما المشكلة التي يجب بحثها في هذا المثال؟ لنفترض أن شخصاً ينظر في مقياس الحرارة معلق على الحائط الخارجي لأحد المنازل فيعرف أن الحرارة تبلغ ١٨ درجة مئوية . والسؤال الذي يُطرح الآن : هل معرفته هذه ذاتيـــة المضمون ، أي هل يتعلق المضمون بالشخص الملاحظ ؟

(*) عن مجلة الثقافة والحياة Culture And Life

أو لنعتمد سلسلة الملاحظة الفيزيائية لقطيرات الضباب كوسيلة لقياس الشحنة الكهربائية للجزيئات الذرية والجوهرية . فماذا ما انتبه المرء الى تعيين الظروف ، فسيتحقق انه يتعامل مع الكهارب الموجبة Positrons ، وان للجزيئات الاولية للمادة خواص ثابتة . وهنا يثار السؤال : أللتصور الكهرب الموجب ، أو الجزيء الاولي للمادة عموماً ، مضمون موضوعي ، أي مضمون متعلق بملاحظـــة القطيرات الضبابية ، وبالاستقراء الناشيء عن هذه الملاحظة ؟

لقد ظلت مفاهيم الحرارة والجزيء الأولي ، والمفاهيم الأخرى الكثيرة المستعملة في الفيزياء ، ذات مضامين ذاتية ، الى ان كشفت الفيزياء عن طبيعتها القائمة مستقلة عن وعي الفيزيائي .

وهذه هي وجهة النظر المادية . وان هناك طبيعيين Naturalists ليسوا ماديين اعتمدوا وجهة النظر هذه تلقائياً . هذه النظرة التلقائية ، المادية تاريخيا ، للفيلسوف الطبيعي هي نقل للحقيقة الموضوعيـــة الطبيعة كانعكاس لوعي الانسان ، وهي عاجزة عن الإجابة على الأسئلة الفلسفية الكثيرة التي أثارها تطور الفيزياء الحديثة . وبين هذه الأسئلة تكمن مسائل العـــلاقة بين النسبة والحقيقة المطلقة ، بين التناقضات الجدلية .. الخ (سوف نتعمق بهذا بعد حين) .

فلنتحدث بتفصيل اكثر .

ان الملاحظات التي يلاحظها الفيزيائي ضمن شروط تجريبية معينة (الوسيلة المستعملة هي قطيرات الضباب) عن الكهرب Electrons أنه ينساب في جريانه كغيره من الجسيمات ، بينما تراه وجهة نظر أخرى (ضمن الشرط الموضوعي لا كتشاف تعدد الشعاع الكهربائي على سطح البلورات) أنه يشبه مجموعة من الموجات . والسؤال الذي نسأله هو : أيكون مفهوم الكهرب متعلقاً بالحقيقة

الموضوعية مادام سلوكه غاية في التناقض ؟ وبتعبير آخر كيف يمكن ان يكون الشيء الواحد ذاته جسماً (أي ان الشيء محدد بحجمه الدقيق جداً) وموجة معاً (كشيء يتسع في مكان مترامي الاطراف) ؟ أو بتعبير الفيزياء القديمة ، ان عملية التوفيق بين رأيي الجسيم والموجة المتتابعي الظهور ليست الا تناقضاً كبيراً .

وتزودنا الفيزياء بثروة من المدلولات من هذا القبيل . كالمدلولات التي تستخدمها المثالية المعاصرة والوضعية الجديدة بغية انشاء خليج بين الفيزياء الحديثة والفلسفة المادية من اجل دحض المـادية ، ف.ب . فرانك (Frank) ، وهو أمريكي ذو نزعة وضعية جديدة ، يحاول عبثاً اثبات ان الكهرب ليس حقيقة موضوعية ، بقدر ما هو مفهوم يقدمه الفيزيائيون منه ينشأ الاستقرار المنطقي لقراءات التجربة . اي انه وبتعبير آخر ، ينظر الى الكهرب كنشأة منطقية ليس إلا .

وعلينا الآن توضيح مشكلة الحقيقة في الفيزياء المعاصرة . اي فيما اذا كانت صفة الوجود حقيقة متضمنة في الموضوعات والظواهر الاعتيادية ، أم هي متضمنة ايضاً في الموضوعات والظاهرات الدقيقة المعروفة فقط من قبل قراءات التجربة (الآراء المستقرأة من هذه القراءات لاتضـاف الى مفاهيم الفيزياء القديمة ، الاتباعية) .

ان صراعاً محتدماً حول هذه المشكلة يجد في فلسفة العلم الطبيعي بين المادية وبين الاتجاهات المثالية الصرفة والوضعية .

وحدة التضادات ، هي القانون الموضوعي للعالم المادي :

تقدّم المادية الديالكتيكية الاجابة عن السؤال الفلسفي عن الحقيقة التي أنشأتها فيزياء الكوانتا . لأنه لايوجد عنصر من عناصر الاشياء كلها مستقر على

حال ، سواء كان مادياً أم روحياً . فليس ثمة عنصر لها يتبدل وليس ثمة من مطلق فيزيائي . ان الشيء الوحيد الذي لا يتغير هو انعكاس العالم في وعي الانسان . العالم الذي يوجد ويتطور مستقلاً عنه . وثمة ترابط غريزي بين هذا الرأي المادي الديالكتيكي وبين التعريف اللينيني للمادة كحقيقة موضوعية مستقلة عن الوعي .

لقد أبعد التعريف اللينيني للمادة الميتافيزياء كلياً ، وأعد كل متطلبات الحل لمسألة الحقيقة في الفيزياء الحديثة . ان الانظمة الكونية للمركبات المتحولة (بما فيها الشمس والكواكب) ، والانظمة المجهرية ، الذرات ، نويات الذرات ، الكهارب والبروتونات وغيرها من الجسيمات الاولية ، بما فيها الجسيمات المضادة (الكهرب الموجب ، البروتون السالب ، الخ) ، والحقول الفيزيائية ، والاشعاع ، تلك جميعاً هي كل الحقيقة الموضوعية المنعكسة بالنسبة الى المفاهيم العلمية . وهي بأمرها أشكال متعددة للمادة المتحركة .

ان الميتافيزيائي — سواء كان عالماً ام رافضاً لكل لبوس « علمي » — يطلب الطبيعة البشرية على صليب نظرية خاصة . بينما تنبذ المادية الديالكتيكية ، مهما كان الأمر ، الجمود والنزعة الكونية البعيدة القاسية وأشباهها . فلا نهائية الطبيعة ، ووحدة خاصتي الاتصال والانفصال في ذات المادة المتحركة ، والتبادل بين كل اشكال المادة وأنواعها ، وغيرها من الآراء المادية الديالكتيكية قد عززت باكتشاف الخواص الموجية للمادة والخواص الجسيمية للضوء ، بتحول المادة الى ضوء وبالعكس ، وباكتشاف الأشكال المتعددة جداً للعناصر الأولية ، بتغيراتها المتبادلة بمجموعة كاملة من الخواص غير المعروفة ، وباكتشاف البنية المميزة للعناصر الأولية ، وبغيرهما من مكتشفات التجريب الفيزيائي اليوم .

ولقد عضد كل واحد من هذه الاكتشافات ط ... ي القرن التاسع عشر .

فكيف يمكن للعناصر الاولية ان ترجع الى بعضها مادامت كثرة العالم وكل التغيرات الحادثة فيه قد اعتبرت ، منذ ايام ديمقريطس ، انها ترجع الى اتحاد وافتراق الجزيء الذي لا يوصف ، الجزيء الذي لا يتجزأ ؟ أليس اتحاد الامواج المتصلة والجسيمات المنفصلة امراً سخيفاً عموماً ؟ فكيف يتحتم علينا النظر الى تحول العناصر المادية الساكنة الى الضوء ، الذي يرحل بمعدل سرعة هائل لايمكن تصوره ؟

أمن المحتم ان تتبع حركة الكهرب في الذرة القوانين ذاتها ، كقانون حركة الجسيمات وإصدار الأمواج ، المألوفة لدينا في التجربة اليومية ؟ لقد أثبت العالم الدقيق أنه لايشبه إطلاقاً العالم الاعتيادي . ولذلك فقد أصبح من الضروري إعادة النظر في المفاهيم الفيزيائية بغية الإفادة منها في العالم الدقيق الذي لم تستطع الفيزياء الاتباعية النفاذ خلاله . ولقد تمت إعادة النظر هذه بفضل الفيزياء الكوانتية ، التي طورت مفاهيم المادة وقوانينها على المستوى المجهري أي انها طورت الحقيقة الموضوعية بشكل أكمل وأعمق من القوانين والمفاهيم التي قدمتها الفيزياء الاتباعية .

ومنذ بينت التجربة ان الكهرب الجاري او شعاع الضوء لكل منهما في نفس الوقت خاصتا الجسيمات المتحركة والأمواج ، تبع ذلك ، ان الكهرب (كغيره من الكيانات الدقيقة) و كذلك الضوء (او بتعبير آخر الحقل) ، يمكن ألا يكون جسيماً او موجة ، ولكنه يجب ان يكون شيئاً ما تتوحد فيه الخاصتان الجسيمية والموجية في تركيب أرقى ، وهذا هو ماتعتبره الفيزياء الكوانتية بالضبط انه موضوعات العالم الدقيق . ولقد عرف العديد من الطبيعيين

هذه النظرة الجدلية في توحيد المفهومين الجسمي والموجي للمادة ، التي حددت واختبرت بوضوح كبير من قبل العالم السوفيتي المعروف : الأكاديمي (س . ا . فافيلوف Vavilov) .

لقد أيد تطور النظرية الكوانتية واختبر ، أي تطور نظرية الفيزياء الحديثة عن المادة والحقل ، فكرة اثنينية الموجة – الجسم للمادة والحقل . فالمادة او العنصر ، والحقل هما عموماً ليساموجتين ولا جسمين حسب تعابير الفيزياء الإتباعية . كما ان صفتي الموجة والجسم لاتتحدان مع أنموذج آلي (ميكانيكي) يمثل الكيان الدقيق ، او يمثل كمثال ، الجزئي المحاط بحقل موجي . وهاتان الصفتان هما صفة واحدة رغم تضادهما ، ذلك يعني ان لتلك المادة ، في ذات الوقت خاصتي الموجة والجسم .

ان وجهة النظر الديالكتيكية هذه ، التي تمس جوهر الظواهر الدقيقة ، تمكننا ان نحل من الجذور اكثر المسائل إلحاحاً وهي نظرية الذرات والجزئيات الدقيقة . ان العلاقة المشهورة ، غير المتعينة في الميكانيك الكوانتية ، التي تبين مدى إمكان تطبيق المفهوم الإتباعي للجزئي على الكيان الدقيق ، هي في جوهرها ، كمثال ، تعبير عن اثنينية الموجة – الجسم في الكيانات الدقيقة . وهذه العلاقة تعني كل شيء ، لكن محدودية معرفتنا – كما يحب معارضو المادية القول – ، وهذه العلاقة غير المتعينة ، التي تكشف محدودية المفهوم الإتباعي للجزئي حين نطبقه على الكيانات المجهرية ، هي بالضرورة النفاذ العميق للفيزياء في أغوار المادة .

وتحاول النظرية الوضعية الجديدة جهدها وحصر وجهة النظر التي تقدمها المادية الديالكتيكية حول مشكلة الحقيقة في الفيزياء الكوانتية .

ان ب. فرانك (المذكور سابقاً) ، الذي يعتبر المفهوم الفيزيائي فارغاً من المضمون ، لايوافق على رأي المؤلفين الذين يرون ان الكهرب ، وغيره من الكيانات الدقيقة ، هو وحدة الخاصتين الموجية والجسيمية للمادة . بل انه بدلاً من ان يناقش منهجيهم في اصطلاحات الوصف الدالة ، يدخل تعبير « الموضوع شبه – القنطروس »(١) – نصف الموجة نصف الجسيم – ، أقول، يدخل هـذا التعبير الى النظرية الكوانتية .

وسيغدو جلياً بعد حين أن وحدة المتضادات هي عموماً لاشيء بالنسبة للموضوع شبه – القنطروس الذي ابتدعه فرانك . أحقيقـة يُشبه قطبا الشمال والجنوب في المغناطيس ، والفعل في الميكانيك الإتباعيـة ، والعناصر والعناصر المضادة في فيزياء العناصر الأولية ، والمكان والزمان في النظرية النسبية المقصورة (الخاصة) ، وغيرها ، أهي تشبه جميعاً « الموضوع شبه – القنطروس »؟ . ان قانون وحدة وصراع المتضادات هو قانون العـالم المادي وقانون معرفته ، ولا يمكن حذفه بمثل تعبير « الموضوع شبه – القنطروس » ، وغيره .

ويرى (ج . ويتر) wetter ، وهو تومـائي حديث ، أن ثمة نقصاً في التعريف الديالكتيكي للمادة لانستطيع بواسطته الإجابة عما اذا كانت المادة هي « الحقيقة الوحيدة والنهائية » . ذلك أنه يعتقد ان الفـيزياء الكوانتية تنسجم ببساطة مع المادة الديالكتيكية ، بيد أنها لاتثبتها ، لأن تفسير الفيزياءالكوانتية ممكن تحقيقه وبصمه ، كما يرى ، بواسطة كل من المادية الديالكتيكية والفلسفة الوضعية .

---

(١) القنطروس Centaur حيوان خرافي أسطوري نصفه الأعلى على شكل انسان ، ونصفهالأدنى على شكل دابة – المترجم –

ان ويتر يتهرب من واقعة ان تعريف المادة الذي ينتقده هو تعريف جدلي وهو ، لذلك ، يدحض كل « حقيقته النهائية » (التي يقصد ويتر الله بها) . واذا تطلعنا الى الفيزياء الكوانتية نرى أنها تميز التبادل فيما بين الذرة والجزئيات الدقيقة عموماً ، ديمومة الجزئيات ، وفيما بين الترابط بين خاصتي المادة الموجية والجسيمية ، وهذه ، كغيرها من الأشياء الأخرى ، تعني بالضبط ان الفيزياء الكوانتية قد دعمت المادية الديالكتيكية .

لم يقل الفيزيائيون المعاصرون ، كالبرت انشتين (Einstein) و ويرنر هايزنبرغ (Heisenberg) و م. بورن (Born) ، كما يقول الوضعيون ، انهم ماديون ، بل يجاهدون الابقاء على مفهوم الحقيقة الموضوعية حين يناقشون المسائل الفلسفية للفيزياء ، ذلك ان الاعتقاد الفلسفي غير الواعي ، كما يرون ، لا يستطيع ان يطال آراءهم المثالية واللاادرية . اما نيلز بور (Bohr) ابرز فيزيائيي العصر ، فلديه وجهة نظر جديرة بالاعتبار عن « الفيزياء الكوانتية والفلسفة » . فهو لاحظ ان وصف الظاهرة الذرية هو بالضبط وصف موضوعي ، وبين ان اصطلاحاتنا في في الميكانيك الكوانتية هي اصطلاحات مناسبة للمفاهيم الإتباعية المعروفة ، وليست اصطلاحات لضبط القياس . إن بور ضد تعابير مثل « القياس يخلق السمات الفيزيائية للموضوعات » ، الخ . إنه يناهض بالتأكيد الآراء الوضعية ، ويمس مباشرة العلاج المادي للآراء الاساسية للفيزياء الكوانتية . كما انتبه بحق العالم الأكاديمي السوفيتي ف . ا . فوك (Pok) .

وهكذا تعكس النظرية الكوانتية الحقيقة الموضوعية . انها تعكس المادة المتحركة على مستوى الظاهرة الدقيقة ، وتمكن العقل البشري من الغوص في اغوار المادة .

الينبوع الفلسفي لتقدم الفيزياء الحديثة :

طبق الفيزيائيون المحدثون قوانين الديالكتيك، سواء اتم ذلك بدون وعي فلسفي ، تحت تأثير الاكتشافات التي تندرج في إطار المفاهيم القديمة ، ام بوعي. ففي الحالة الاولى يغدو طريق توفيق النتائج كثير الالتواء وغالباً مايكون مزدحماً بالمتاعب النظرية . وفي الحالة الثانية ، تتساوى الأشياء الأخرى ، ويصبح طريق انجاز النتائج العامة قصيراً جداً .

إن التساؤل المنهجي الذي القته الفيزياء الحديثة، الذي يقول ان النظريات الإتباعية يجب ان ينظر اليها على انها حالة قصوى وخاصة لنظريات حديثة تناسب تطبيقات المنهج الديالكتيكي. فالفكرة الاساسية للنظرية النسبية هي فكرة العلاقة الجوهرية بين مفهومي الزمان والمكان ، والفكرة الاساسية لنظرية الكوانتا تتضمن وحدة مفهومي الجسم والموجة ، وهما تطبيقان لقانون وحدة المتضادات الديالكتيكي . ونحن قادرون على انشاء قائمة لمثل هذه التطبيقات الديالكتيكية في الفيزياء الحديثة .

لقد توصل العلماء ، بما فيهم اولئك الذين تضعهم آراؤهم الفردية الفلسفية بعيداً عن المادية الجدلية ، توصلوا بالحقيقة الى نفس الرأي . وهذا ينطبق على الرأي الذي قال به ماكس بلانك (Plank) مؤسس النظرية الكوانتية حين شبه فرضيتي موجية وجسيمية الضوء بمتصارعين متعادلين في القوة ، ولكل منهما نفس السلاح ، ولكن له ايضاً نقطة ضعفه ، فيصعب التنبؤ بنتيجة الصراع ، بيد ان الفرضيتين ، وحسب كل الاحتمالات ، تنتصران بالكلية معاً، لأن لكل منهما جانب، يدعمه عن جدارة منطلق راق ما . ومن الممكن ان نضيف ان كوانتوم

الديناميك الالكتروني قــد غدا المنطلق الراقي الذي يتحدث بلانك عنه برؤيا ديالكتيكية رائعة .

وكتب بور بالنسبة للفيزياء الكوانتية : ان « الحقائق العظيمة » هي الحقائق الديالكتيكية . كما وثمة تشابه كبير في اعمال انشتين، بورن، هايزنبرغ، الذين ساهموا مساهمات فعالة في تقدم الفيزياء الحديثة . ولقد اثبتت منجزات كل هؤلاء فكرة لينين القائلة ان الفيزياء الحديثة حققت ولادة المادية الديالكتيكية.

لقد تقدمت الفيزياء الحديثة ووصلت الى المادية الديالكتيكية ليس تلقائياً فقط ، ولكن - وهذا مهم خصوصاً في ايامنا هــذه - خلال تطورات المادية الديالكتيكية ذاتها في تطبيقها على العلم الطبيعي .

ان المادية الديالكتيكية إذن هي الينبوع الفلسفي لتقدم الفيزياء الحديثة وكل العلم الطبيعي .

لمحات عن الفنون

سليمان جاد الله العريفي

كي نتحدث عن الفنون في السودان ، ونتابع المراحل التي مرت بها والاغراض التي خدمتها ، لابد لنا من وقفة قصيرة نلم فيها المامة سريعة بتاريخ هذه الفنون .

فمنذ فجر التاريخ وجد الانسان ووجدت معه الفنون كنتاج حتمي لحاجتــه للحماية من عناصر الطبيعة من برد وحر ومن ارواح شريرة آمن بوجودها واعتقد بها .. فكانت حضارته البسيطة الساذجة والمتمثلة في اكواخه وادواته ونقوشه . ولهذا كانت الفنون عند الانسان البدائي ضرورة ماسة وملحة تخدم منافع خاصة مادية ، واخرى معنوية .. فرسومه على جدران الكهوف لم تكن لامتاع العين ولكنها كانت تعويذة تملأه بالتفاؤل والأمل وكذلك كانت تماثيله .

وبالتدريج وبعد أن وفر الانسان ضرورات المأكل والمأوى والملبس بدأ يحتاج الى ضرب آخر من ضروب الفنون يعود عليه بالمتعة الروحية المجردة . فقاده احساسه بجمال الصوت مثلا الى معرفة الموسيقى وصنع آلاتها . ولا يختلف هذا الوضع كثيراً من بلد لآخر وخاصة ان الحضارة والتراث الانساني لا موطن ولا جنسيـــة لها فهي في تنقل مستمر من جيل لاخر تمثل امتدادا لنشاطات العقل البشري وابتكاراته عبر القرون ، مما جعل الفنون بانواعها المختلفة من عمارة ورسم وتصوير ونقش وخلافها ، سجلا حافلا لتدرج الحضارة الانسانية .

وفي السودان المترامي الاطراف المتعدد الاقاليم المتباين المناخات وجدت اساليب معيشية مختلفة كان لهـــا أثرها الفعال في خلق تباين واضح في الاسلوب الفني من منطقة لاخرى . وللتلاحم التاريخي والامتزاج الحضاري أثره الملموس في هذه الناحية ، ففي شمال السودان مثلا ساعدت الطبيعة على نشاط الانسان بعكس الحال في جنوبه حيث وفرة الموارد الطبيعية ، وعامل المناخ أديا الى الركون والاسترخاء ، الامر الذي قاد سكان تلك المنطقة الى الاستفادة من الفراغ الطويل في تنمية مهاراتهم اليدوية والاستمتاع بقدر الامكان بوسائل الترفيه المختلفة كالرقص والموسيقى . ومع قسوة الحياة في سلسلة تلال البحر الاحمر في شرق السودان تلمس في المصنوعات المختلفة في تلك المنطقة من سيوف وخناجر واغماد مهـــارة يدوية يتمتع بها افراد قبائـــل البجه والهدندوه الامراء والبشاريين وخلافهم .

اما النتاج الفني في غرب السودان فيتمثل في المصنوعات الجلدية وسعف النخيل والفخار لحاجة الناس لمثل هذه المصنوعات في حياتهم اليومية ..

وبالرغم من عوامل العزل الحضاري المتمثلة في الصحراء شمالا ، وفي الغابة الاستوائية جنوبا ، ادت الروابط الأزلية بين شقي وادي النيل الى اتصالها — فمنذ عهـــد الأسر الفرعونية اقتضت حاجة قدماء المصريين أن يتجهوا صوب الجنوب لجلب بعض السلع التي كانوا يستخدمونها في حياتهم الدينية والتي هيمنت على كل شكل من اشكال حياتهم وبرزت في جميع تصرفاتهم فادى هذا الى تلاحم الحضارتين واصطراعها ، الامر الذي نشأ عنه اصطباغ الفنون في شمال السودان بالصبغة الفرعونية التي تبدو جلية في انماط المعمار ، في المعابد والمقابر والاهرامات ، وفي النحت الذي يمتاز بالضخامة والفخامـــة وجودة التعبير وقوته .

تبع ذلك ظهور الحضارة الكوشية في مروى وكانت امتداداً للفترة السابقة غير

انها تميزت عنها بالاستقلال السياسي والفني ، اذ استخدمت الوحدات الزخرفية النابعة من الواقع السوداني والتي كانت تظهر في واجهـات المعابد والخزف المروى الهندسي الزخرفة . وحضارة مروى كنز ثمين مازال مغلقا في انتظار من يستطيع فضه لعدم فك طلاسمه حتى الآن بالرغم من الجهود المبذولة من اجل ذلك . وما يهمنا من امر هذا الاتصال هو دخول المسيحية في السودان حاملة معها بذور الفن البيزنطي واصدق دليل مادي تلك الرسوم التي اكتشفت في كنيسة فرس(١) وعثرت عليها في سنـة ١٩٦٠ البعثة البولندية برئاسة البروفسور ميكالوفسكي والتي جاءت ملبية نداءات الانقاذ لآثار النوبة . وتميزت اللوحات التي وجدت بداخلهـا والتي تبلغ حوالي مائة لوحة بالاصالة والابداع الفني . وهذه المجموعة تمثل عصورا مختلفة منذ القرن السابع الميلادي حتى القرن الثاني عشر ، ويلاحظ تأثرها بالفن البيزنطي اكثر من تأثرها بفن التصوير القبطي. وهو الجسر الذي عليه عبرت المسيحية الى النوبة مما يثير الارتياب والشك في ان راهبها من النوبة ، ومصداقا لذلك تلك الصورة التي حلت كثيرا من ملامح قسطنطين . ولكن بجانب ذلك وجد العديد من اللوحات التي تحمل الطابع والملامح النوبية الصميمة والتي تقف دليلا بارزاً على ان راهبها فنانون نوبيون . ومن حسن الحظ أن ساعدت العوامل الطبيعية بمنطقة فرس على حفظ هذه الكنيسة سالمة واخفتها عن اعين المهـاجرين العرب الذين كانوا يحـولون الكنائس التي يجدونها الى مساجـد تقام فيها شعائر دينهم الحنيف .

وقد جاء العرب بمقومات فنية جديدة اصبحت طابعا مميزاً للفنون السـودانية التي تتميز بالخط العربي ممزوجاً بعناصر زخرفية تعرف عند السـودانيين (بالشرافة)وهي عبارة عن رسوم زخرفية مجردة تخلو من التجسيد والتجسيم ، بألوان بسيطة ومعبرة فيها عمق الايمان ورهبة الخشوع .

ومن ابرز معالم الفن الاسلامي عمارته الشامخة التي تمتاز بجمال فريد ، وهنا يجدر بنا ان نشير الى أمر هام قام فيه جدل أخفى معـالم الحقيقة ، وهو ان بعض الغربيين ومن اتبعهم يعتقدون ان العمارة الاسلامية بعقودها واعمدتها وقبابها ومآذنها ونقوشها وزخارفها الجصية وغير الجصية المحفورة على المعادن والخشب بمختلف انواعه يعتبرونها مأخوذة من

---

(١) كنيسة فرس اكتشفت في شمال مدينـة حلفا على بعد ٢٠ – ٣٠ ميلاً من الحدود المصرية .

الطابع البيزنطي او الطابع القوطي ولكن المعبد العربي الذي عثر عليه الدكتور احمد فخري في مدينة مأرب القديمة ، والذي يرجع تاريخه الى مئات السنين قبل الميلاد يقف حجة دامغة وبرهاناً ناصعاً على إصالة العمارة العربية . فالاقواس المترابطة التي تزينها آيات قرآنية كريمة محفورة على حافتها تحيط بها زخارف تعتمد في وحدتها على اشكال تجريدية مستوحاة من الطبيعة كأوراق الاشجار واغصانها ، والزجاج المعشق ذوالالوان الزاهية الذي يضفي على المكان جمالا وجلالاً ، والمصابيح المعدنية المزينة بالنقوش ، والمنابر الفخمة التي تبرز بوضوح مقدرة الفنان العربي ومهارته في الحفر الزخرفي على الخشب وغيره مستعينا بالاشكال الهندسية ، كلها عناصر للعمارة العربية الاسلامية التي تجلت في المساجد والقصور . فانتقلت الى السودان ووضحت في مساجده المنتشرة في ارجائه المختلفة وفي القصور العربية التي ازدانت بها مدينةسواكن المطلة على البحر الاحمر ولاتزال اطلالها باقية تشير الى اثر فن العمارة الاسلامي في السودان .

اما التصوير الاسلامي والذي يمتاز عن سواه بالميل الى التسطيح والابتعاد عن البعد الثالث والعمق والذي استطاع دارسوه منذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ان يميزوا بين مدارسه المختلفة الشهيرة وان ينسبوها الى بلاد بعينها وفقا للمقومات الخاصة بكل منها ، اي الى المدرسة الايرانية والهندية والمغولية والتركية ، **فقد مورس** ايضاً في السودان وان لم يكن بنفس القدر والوفرة التي مورس بها في كل من بغداد والموصل ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة ،الا انه اكتسب نفس الخصائص والمميزات..

الفن الزنجي

وعلينا الان ان نعود الى الفنون الزنجية لابراز اثرها في السودان ومن التسمية يتضح انها ترتبط بجنس او سلالة معينة الامر الذي يوجد لنا بعض العذر في التعرض لبعض المسائل السلالية . فالزنوج الخلص يسكنون المناطق المتاخمة للحدود الغربية لجمهورية السودان . اما الاقليم الواقع جنوب خط عرض ١٢° شمالا في السودان . فهو اقليم آهل بالقبائل النيلية المتزنجة التي عدل الاختلاط بعض الاجناس ، كالجنس الحامي مثلا ، من صفاتها الجسمية . ولا نقصد مما تقدم سوى ابراز الفارق الواضح في مميزات الاعمال الفنية في المنطقتين اللتين تعرضنا لهما بالاشارة ، والذي يمكننا ان نرجعه الى اختلاف طرق الحياة في كل منهما . فبينما عملت قبائل الغرب في الصيد والرعي فاصبحت مهاجرة مرتحلة ، اشتغلت القبائل النيلية بالزراعة والرعي فكانت هجرتها اقل واستقرارها

أطول . فنشأ من هنا الاختلاف في بعض المميزات غير أن النمطين مشتركان في التسمية بالفن الزنجي .

ويتمثل الفن الزنجي في التماثيل المشكلة من الطين والحجر والخشب والعاج والابنوس والتي تظهر فيها محاولة تصوير البيئة والواقع بشيء من التصرف المقصود مما أكسب هذا النمط الفني صفة الرمزية والتجريد . ويلمس هذا بوضوح في الاقنعة الخشبية التي تصنع لتستخدم في الاحتفالات الدينية والمناسبات التي تهيمن عليها فكرة الايمان بالكجور والسحر . وهذا هو الاختلاف الذي قصدت اليه فيما تقدم . فبينما كانت الفنون الزنجية في الجنوب رمزية تجريدية ، اكتشف في غرب افريقيا نمط من النحت مارسته قبائل الايفي النيجرية يمتاز بالواقعية التي جعلت البعض يشك في ان مبتدعيه من زنوج افريقيا ، وليس غرضنا أن نجادل بقدر ما نهدف الى ايضاح الفروق المختلفة . ومن مميزات الفن الزنجي المشتركة الاهتمام بالزخارف المعتمدة على الخط وبعض الوحدات الهندسية التي تزين بهـا الالات والادوات والاواني الفخارية . اما الالوان المستخدمة فتمتـاز بالوفرة والحيوية والغنى . ومما هو جدير بالذكر أن بعض الفنانين العالميين مثال بيكاسو فقد افادوا من الفنون الزنجية ، فكان ان ظهرت مدارس فنية جديدة عرفها العالم واعجب بها ..

وهكذا نجد ان الفنون في السودان اثرت فيها عناصر فنية كثيرة ومختلفة على مر العصور أخذت منها ما وافق الواقـع البيئي والواقع البشري وصهرته في بوتقة علية اكسبته صفات ومميزات جديدة واضحة المعالم يدرك كل من يراها انها انماط سودانية حقة وصرفة ...

فترة العزل الحضاري في العهدين التركي والانجليزي

في بداية القرن السادس عشر الميلادي بدأ الاتراك العثمانيون زحفهم نحو البـلاد العربية يبغون تأسيس امبراطورية واسعة الأرجاء ممتدة الأطراف . وكان ان تحقق لهم ذلك ومن المعروف ان السياسة العثمانية هدفت منذ البداية الى الانعزال عن كل ما هو ليس بتركي أملاً بالابتعاد عن المشاكل السياسية الدائرة في الأفق العالمي وقتذاك حتى تكون بمأمن يكفل لها القوة والمنعة والسيادة . لهـذا تميزت فترة الاحتلال التركي السودان بالركود والجمود في كل مضمار بما في ذلك مضمار الفنون ، اذ عزلتها عن التيارات العالمية وحرمتها من ان تؤثر فيها وتتأثر بها . ولكن من المستحيل كما هو معروف وأد الأفكار وقتل المعتقدات ، وهكذا كان من الصعب الوقوف في طريق الفنون الشعبية البدوية

السودانية وغير البدوية . خاصة وان الفنون الشعبية اينما كانت تعتبر روح الشعب النابعة من صميم كيانه ووجدانه عبر الاجيال المتعاقبة المتلاحقة . فلم تستطع فترة الركود العثمانية تلك ان تؤثر في قليل او كثير في الفنون الشعبية اليدوية التي تتمثل في المصنوعات الخشبية والعاجية والابنوسية الدقيقة الصنع ، وفي اعمال الفخار وتلوينه وحرقه وزخرفته ، وفي اعمال ريش النعام وتزيينه بوحدات زخرفية جلدية وفي اعمال السعف وجذور الاشجار وسوقها وما الى ذلك من المصنوعات التي كان يحتاجها الناس في حياتهم اليومية العادية . وكذلك كان الحال بالنسبة للفنون الشعبية الاخرى كالأحاجي والقصص والاغاني والاشعار والرقصات القبلية وخلافها .

ومن الطريف ان سياسة الانعزال تلك التي انتهجها الاتراك العثمانيون بغية الابتعاد عن المشاكل السياسية العالمية ، كانت عاملا للضعف اكثر مما تكون عاملا للقوة مما ادى الى انهيار فترة التسلط التركي عندما هبت رياح المقاومة الوطنية متمثلة في الثورة المهدية مؤكدة الشعور القومي ، عاملة لوحدة الصف والهدف مما كان له اثره في انعاش الفنون الشعبية . خاصة الأعمال ذات الاتصال الوثيق بحركة المقاومة الوطنية كأعمال الدروع والسروج والرايات والاعلام والزي القومي الذي كان له اثره الفعال في الروح المعنوية بالنسبة للطرفين . فاتسعت الفنون في تلك الحقبة بالاصالة وارتبطت بخدمة الغرض الوطني واستمر الحال كذلك الى حين تدخل بريطانيا الاثيم بحجة الثأر لجنرالها غوردون الذي كان يعمل لحساب الخديوي ، وبعد كفاح مرير مليء بمعاني البطولة والشرف دخل السودان في فترة الاحتلال البريطاني الكريه ..

ووفقاً للسياسة الاستعمارية البريطانية التي تتحاشى مجابهة الشعوب ، عملت الحكومة البريطانية على خلق جهاز اداري تكون رئاسته بريطانية بينما تديره أياد وطنية ؛ فكان ان انشئت كلية غوردون التذكارية في مستهل القرن العشرين لسد العجز في الموظفين والكتبة والمحاسبين وما الى ذلك من وظائف . وضمن اقسام تلك الكلية اقيم قسم خاص بتدريس الفنون الغرض منه اعداد المدرسين لتلك المادة في المرحلتين الوسطى والثانوية، ثم انفصلت هذه المدرسة واصبحت تابعة لمعهد الخرطوم الفني واطلق عليها اسم « مدرسة الفنون الجميلة والتطبيقية » . وقد اتسعت اقسامها وتباينت اغراضها بعد أن كانت تهتم فقط بتخريج مدرسي التربية الفنية وتولى التدريس في هذه المدرسة اساتذة وطنيون عرفوا بالاخلاص والكفاءة والعمل الدائب لرفعة مستوى هذه المؤسسة مما جعل الاذهان تنصرف

بفصلها عن المعهد الفني وجعلها كلية قائمة بذاتها . وجاءت شهادة عمداء كليات انكلترا واوصوا بالعمل لفصلها وتوفير الامكانات لها حتى تلعب دورها كاملا . وقد شهدت هذه المؤسسة نشاطاً دائباً بين اساتذتها وطلابها الذين كانوا يشتركون في مسابقات عالمية كثيراً مانالوا فيها المرتبات العليا . ومن بين هذه النشاطات والتجارب المتعددة برزت مدارس فنية واضحة المعالم نابعة من الوجوه السوداني الأصيل ، خرجت من النطاق المحلي الى النطاق العالمي . وهذا يقودنا الى الحديث عن بعض الفنانين السودانيين مراعين في نفس الوقت تباين الاتجاهات والاساليب الفنية عند كل منهم مع اعتذارنا لعدم التمكن من التحدث عنهم جميعاً ...

الصلحي وشبرين

يعملان بالتدريس بكلية الفنون الجميلة والتطبيقية ، يحاضر الاول بقسم التصوير والتلوين والرسم ، ويحاضر الآخر بقسم التصميم الفني والاعلان . وبعد اكمال دراستها بالسودان تلقى كل منها دراسة عليا في الكليات الاوربية ، وعادا بذخيرة فنية وافرة افادتها في خلق اسلوب جديد اصيل ينبع من الكيان السوداني ويعتمد على الخط العربي والزخرف الزنجي الافريقي فامتزجت مقومات حضارة افريقيا الزنجية بالحضارة الاسلامية في اعمالها ، تماما كما تمتزج في الواقع السوداني المعاش . فكانت بحق مدرسة رائدة يطل منها وجه السودان جليا مشرقا ، تعرف باسم مدرسة الخرطوم والجديرة بالذكر بالرغم من التقاء افكارهما في اتجاه واحد الا أنه لكل منها اسلوبه وطريقته الخاصة في معالجة مواضيعه وعرضها ..

حسن الهادي

وجه سوداني آخر ، عمل في بداية حياته الفنية محاضرا بقسم التصميم وطباعة الاقمشة بمدرسة الفنون الجميلة والتطبيقية في الخرطوم وذلك بعد ان عاد بمؤهلات عليا من كلية الفنون الملكية بانجلترا ، ثم تفرغ للعمل الحر الخاص . ويلاحظ في عمله الارتباط بالبيئة والالتزام بالمرحلية والاعتماد على التراث السوداني الحق وبتعبير المشاهد العادي به . وله معرض دائم بمدينة أم درمان يعرض فيه بعض اعماله الفنية التي تتميز بالاخذ بالصفات الزنجية والنوبية . وقد وجدت تصمياته التي يرمي من ورائها الى ابراز جمال عناصر الزخرفة المستخلصة من الحياة السودانية الاصيلة لدحض الاراء التي تنادي بتفوق كل ما هو مستورد ، وجدت تلك التصميات تجاوبا لابأس به نعتبره الخطوة الاولى في طريق طويل ..

تاج السر احمد

نموذج ثالث ، نال دراسات عليا بكلية الفنون الملكية بانجلترا وحاز على جائزتها . تنقل في حقل التدريس بقسم التصميم الفني والاعلان بمدرسة الفنون الجميلة والتطبيقية وقسم المعمار بجامعة الخرطوم . وتمتاز اعماله باستغلال الخط والكتلة واللون معاً بانطلاقة في التعبير وقوة في التنفيذ تحملان روح العصر بكل مافيها من جرأة وصلابة .

محمد احمد عبد الله

وجه مقدراته وكفاءته العالية في اعمــال الخزف الى دراسة التصميات السودانية الصرفة لاستخلاص وابتكار تصميات حديثة تحمل الروح الوطنية في اشكالها والوانها ووحداتها الزخرفية .

خاتمـة

هناك كثيرون ممن كان يجدر بنا التعرض لانتاجهم لولا خوف الإطالة مع الأمل في العودة للكتابة عنهم في فرصة اخرى ...

حول

الأعمال الأدبية الكاملة لدوستويفسكي

محيي الدين صبحي

دوستويفسكي !

ومن اديب مثل دوستويفسكي يبدل حياة قرائه ويبث في قلوبهم الرعب !

وهل من كاتب قذف بنفسه الى أبعد من مجاهله ؟ انه على الدوام يقف في أنأى حد من الطرف الأقصى لكل قضية .

إنه افقر الفقراء ، وشخصياته أفقر منه . ولكن هل كتب قصاص رواية تفوق رواياته في غناها ؟ الفقر ليس مشكلة أبطاله ، بالرغم من انهم معدمون . والمجتمع ليس مشكلة أبطـــاله بالرغم من انهم مهووسون . وربما لأنهم كذلك ـ فقراء

(١) عكف الاديب العربي الكبير الدكتور سامي الدروبي على ترجمة الاعمال الكاملة لدوستويفسكي الى اللغة العربية في تسعة عشر مجلداً ، ظهر منها حتى الان خمسة مجلدات ، اصدرتهـــا تباعاً دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ، وهي :

— المجلد الاول ويضم روايات : الفقراء ، المثل ، قلب ضعيف . =

ومهووسون ـ لا يعيرون الفقر او التقاليد اي اهتمام . انهم احرار الا من اوهامهم، تائهون الا عن ضمائرهم . ومع ذلك كله فان مشكلاتهم تنطلق من ضيق يدهم ومن ضيق صدرهم . لكنها لا تنتهي هناك، بل تصب في اللانهاية . وسبب ذلك ان مملكتهم ليست في هذا العالم ـ او على الأصح ليست في العالم المادي او الاجتماعي، بل في ارجاء القلب وملكوت الانسان .

والخطر الذي يترجح ابطاله على هاويته ، إنما ينتج عن استعدادهم الدائم للقفز من حدود العالم الاجتماعي والمصالح المادية الى عالم القلب الانساني والقيم الانسانية . والتوتر الذي نحسه في عالمه ينتج من المراكز التي يتخذها أبطاله على تخوم العالمين المتناقضين . لكن أبطاله لا يكتفون بالانتظار على تخوم العالم المجهول ، عالم القلب والقيم ، بل يقذفون انفسهم اليه رواداً لحياة جديدة وانسان جديد .

من هذا التوتر تنبع جمالية لم يعهد الأدب مثلا لها ، واخلاقية لم يعرفها الانسان الا في دعوات الانبياء وكتابات الطوباويين . لكن دوستويفسكي يرتفع فوق من سبقوه بأنه يعرض حالة متشخصة يتجاوز فيها بطله السلوك المألوف . ولا غرو ولا غرابة في ذلك فدوستويفسكي أديب ، وقوام الأدب التشخيص وليس الفكر المجرد . فاذا كان في ذلك مجد الأدب ، ففيه ايضاً مجد دوستويفسكي لقد استخدم كاتبنا وسيلته الأدبية بأمضى وأصدق ما استخدمت به منذ عرف الانسان التعبير الأدبي .

ومع التوتر تتبدى معالم الطريق الخطر

= ـ المجلد الثاني ويضم روايات : نيتوتشكا ، الليالي البيضاء وغيرها .
ـ المجلد الثالث ويضم روايات : قرية ستيبانتشيكوفو ، حلم العم .
ـ المجلد الرابع ويضم رواية : مذلون مهانون .
ـ المجلد الخامس ويضم رواية: ذكريات من منزل الاموات .
وستستمر الدار في اصدارها حتى المجلد التاسع عشر . (المعرفة)

الذي ينوي بطله أن يسلكه ؛ الطريق - «القدوة» والخطوة - الانموذج . فهذا البطل القلق، الذي يقف على حافة الهاوية لا يريد إلا أن يمعن في طريقه المحفوف بالمخاطر . وما حماه وهوسه الا من أجل اكتشاف هذا الخطر : فاذا سار في اول خطوة عبر الدرب الجديد مضى فيه هادىء النفس مطمئن القلب لا يؤوده هم ولا يؤذيه شر ؛ لقد ولد الانسان الجديد عبر التضحيات والآلام ، وأطل فور ولادته على عالم سعيد تمتزج فيه الرغبة بالعمل والفكرة بالواقع . عالم يتخلص فيه الانسان من كل تمزق او صراع او اغتراب ، ويقف متصالحاً مع نفسه والكون . لقد اندمجت الذات والموضوع من خلال الممارسة وكان هذا التطابق هو الغرض المنشود الذي كان يبحث عنه مجتمعه في فترة حياته . فقد ولد دوستويفسكي وعاش في غمرة مخاض المجتمع الروسي (١٨٢١ - ١٨٨١) ، وهي فترة كان هذا المجتمع يزخر خلالها بمختلف المذاهب القومية والفوضوية والاشتراكية والشيوعية والدينية . وفي مثل هذه المراحل من تاريخ الأمم يكثر التبشير والوعظ والسخط والاحتجاج ، لكن التطرف والتعصب يسودان كل الاتجاهات . كما ان جميع الأطراف تجد نفسها فجأة - وقد فقدت كل قدرة على الحوار - عاجزة عن اتخاذ أية لغة مشتركة للتفاهم فيما بينها . ويغدو من الواجب على كل من يهتم بمصير امته أن يبحث في قضايا الأصول ، ويعود بكل مشكلة الى نشأتها الأولى ، محاولاً أن يعريها من كل ما علق بها ليتيسر حلها حسب طبيعتها وتراث المجتمع وتطلعاته وضرورات المرحلة . ولعل عظمة دوستويفسكي تكمن في وفائه لمجتمعه وتلبيته لضرورات وجوده . اذ تعتبر النماذج التي قدمها أكثر النماذج ايجابية واستجابة لضرورات المرحلة التاريخية التي يجتازها المجتمع ؛ فهذا المجتمع الذي أثقله الفقر والجهل والمرض، ومزقته التناقضات وقعدت به الفوضى وأعمته أنانيات الفئات

المتصارعة ، لا علاج له إلا بالحب والفداء. يجب على الشاب في مثل هذه الفترات أن يحب مجتمعه اكثر مما يحب نفسه او صديقته ، وان يضحي بنفسه في سبيل الخير والحق والجمال ضد الشر والاذى والفساد . ويمكن القول ان شخصياته – بهذا المعنى – تتطوع ، بملء اختيارها في جيش الخلاص. وتكمن قيمتها الخلقية في أنها تتطوع بدافع الضمير وحده ، ودون اية ضغوط خارجية على الاطلاق ان النماذج التي قدمها دوستويفسكي هي بالضبط النماذج الثورية التي يحتاج اليها المجتمع المتخلف لكي ينهض . فهي لاتقيس الأمور بحسب مصلحتها، وانما بحسب القيم التي تؤمن بها . وهـذا جوهر الموقف الثوري والانسان الثوري .

ثمة صيحات كانت تنبعث بين الحين والحين ، تتهم دوستويفسكي بأنه رجعي أو بأنه لم يتحدث عن صراع الطبقات . وهؤلاء المنتقدون ، لا يفهمون ماهية الأدب ، دون ريب . أو أنهم لا يفرقون بينه وبين أنواع الدعاية السياسية المختلفة في جوهرها عن العمل الأدبي . الأدب لا يتعامل بالافكار بل يجسد المواقف . او لنقل بصيغة من صيغ « علم الأدب » : « إن المعاني على قارعة الطريق » ، أما تقدمية الأديب فتقاس بقدرته على صياغة الموقف ، وعرض الاختيارات السانحة أمام البطل ، وموقفه من كل اختيار . امام مثل هذا المعيار تجد في دوستويفسكي أديباً لا يبارى ، ليس فقط في فنه ، بل في تقدميته ايضاً .

* * *

ان طبع الأعمال الأدبية الكاملة لكبـار الأدباء والمفكرين العالميين خطوة تفوق في اهميتها وضرورتها جميع ما انجزه الأدباء العرب في حقل الترجمة حتى الآن . إذ أن المعرفة عملية تنسيق للمعلومات أكثر منها عملية جمع . فضلاً عن أن وجود طبعة تضم الأعمال الكاملة لكل أديب على حدة ، يتيح للناشيء والباحث وحدة التأثير – وهي

عنصر جوهري في التجربة الأدبيـــة . ولعل في فقدان الطبعات الكاملة بعض التفسير لهشاشة الفكر الأدبي والتجربة الأدبية عند معظم العرب المعاصرين . ولا بد أن يأتي يوم نكتشف فيه بطلان سياسة الانتقاء التي سارت عليهـــا المؤسسات الثقافية الحكومية والأهلية في الترجمة ، ونضطر الى اعادة النظر بجميع منجزاتنا الثقافية في حقل الترجمة أو بمعظمها ، فنعيد طباعة آثار العظماء في سلسلة كاملة ، ونعيد أيضاً ترجمـــة بعضها طلباً للدقة أو حسن السبك . من هنا جاء العمل الذي قام به أستاذنا الدكتور سامي الدروبي بالتعاون مع وزارة الثقافة في الجمهورية العربيـــة المتحدة عملا طليعياً في كل نواحيه ، وخطوة عظيمة على الطريق الصحيح . وأصر على صفة « عظيمة » ، هنا لأن البداية كانت بدوستويفسكي ، رأس الأدب الحديث . ولأن المترجم من أصحاب الأساليب في اللغة العربية ، ولن يبعث العربية شيء كاستعمال أجود أساليب الفصحاء في الترجمات الحديثة ، بعد أن انقطع ناشئتنـــا عن التراث وأخذوا يعتمدون اعتماداً كليـــاً على الترجمات العالمية . فاذا وصلتهم هـذه الترجمات بأساليب البلاغـــة المتوارثة اكتسبوا – الى جانب الفكر والثقافة – بلاغة العرب وسلامة العربية . ولعل في ترجمة الدكتور الدروبي أسوة وقدوة لغيره من أصحاب الضمير الفني والغيرة على العربية . إن في الجمـــال الخفي للأسلوب السهل الممتنع لدى أستاذنا خير رفيق لشخصيـــات دوستويفسكي وملاحظاته الثاقبة . ولعل في هـذه السطور دليلا على هـــذه الصحبة الممتعة بين ابداعي الكاتب والمترجم كليهما :

« كان هذا العجوز العجيب يصل أحيانا الى منزلنا . فيتلبث في الدهليز أمام الباب الزجاجي ، دون أن يجرؤ على الدخول . حتى إذا مر أحد منا

قرب ذلك المكان – أنا أوساشا أوخادم يعرف العجوز أنه لا يكرهه – حيا صامتاً بحركة من رأسه ، وقام باشارات شتى من يده ، ثم لم يدخل إلا إذا نودي بغمزة تعني أن ليس في الدار غرباء ، وأن في وسعه أن يدخل : فكان العجوز القصير يشق الباب عندئذ في رفق ، وقد تهلل وجهه وانفرج فمه بابتسامة سعيدة ، وأخذ يفرك يديه احداهما بالأخرى غبطة ورضى ، ثم يتجه الى غرفة بوكروفسكي رأساً . إنه أبوه » .

فانظر إلى الدقة في وصف حركات رجل مرتبك : الحركة من الرأس ، الاشارات الشتى من يديه ، الغمزة ، الابتسامة ، فرك اليدين ، ثم تتبع الظروف المستعملة في اللغات الأجنبية كصفات تحدد الحالة الموصوفة ، وكيف داورها المترجم حسب البيان العربي « في رفق ، في وسعه » ، ثم لاحظ الصيغ العربية المستعملة للتعبير عن حالة داخلية « تهلل وجهه ، انفرج فمه ، غبطة ورضى » .

تكتشف كيف يحفل النص بدفء وحركة لا تتيان إلا في نفس غنية عامرة بالحب للأثر الفني بين يديها ، متمثلة لتراث اللغة العربية المجيد من قرآن كريم وشعر مختار وترسل ووصف يتتابع في سلسلة ذهبية تبدأ بالجاحظ وتمهل عند التوحيدي وتنشط على يدي طه حسين والمازني وأستاذنا الدروبي .

لقد ترك دوستويفسكي الفن الروائي بعده ، وهو يختلف كل الاختلاف عما كان عليه قبله . فرواياته تختلف في البناء والمضمون عن روايات معاصريه من كتاب أوروبا في القرن التاسع عشر . ويبدو أنه لم يكن يحبهم كثيراً ، فقد تشرد في أوروبا – وخاصة ألمانيا وايطاليا – مايقرب من خمس سنوات دون ان يسعى إلى التعرف بواحد من العظماء الذين كانت تزخر بهم أوروبا ١٨٦٧ – ١٨٧١ أو أوروبا ١٨٢١ – ١٨٨١ أي فترة حياة دوستويفسكي بأكملها .

ومع ذلك يقال إن نجاح روايته الأولى « الفقراء » يعود الى مارآه فيها الناقد بيلنسكي من أفكار اجتماعية كان يتوق الى رؤيتها تنتشر عبر الروسيا بواسطة الأدب . لكن بيلنسكي لم يكن ليعرف — ولا كان قادر على أن يتنبأ — بالمقاييس الدوستويفسكية للأدب والانسان . فكما تحمل بذرة الصنوبر في أعماقها شموخ الصنوبرة ، وهي لم تزل بذرة لا يتجاوز حجمها بضعة مليمترات مربعة كذلك تحمل رواية الفقراء الفرضية الأساسية التي وضعها دوستويفسكي للانسان : الانسان الذي لا يملك شيئاً ولا يطمح الى التملك يقدم دائماً قلبه وجهده لمن يحتاجونها . إن ماكار الكسييفتش — بطل الرواية — عجوز في خريف حياته يعمل كاتباً حكومياً — وهي مهنة معظم أبطال دوستويفسكي — براتب لا يبلغه كفاف العيش ، ومع ذلك يساعد فتاة من معارفه تدعى فرفارا دوبرو زيلوفا ، بدافع شفقة تمتزج بالحب . تمرض فيمرضها ، وتحتاج فيعيلها ، زاعماً أن راتبه يكفيها ، وأن هذه النفقات الصغيرة لا تؤوده بل تدخل السرور على قلبه وتساعده على أداء الأعمال الاضافية التي يكلفه بها رؤساؤه ... وشيئاً فشيئاً يحل الشتاء فلا يجد ماكار مايدفع به غائلة البرد من ملابس أو وقود . وتتكشف اللعبة . لقد كان ماكار يستدين على راتبه لشهور طويلة كي يجلب الدواء والطعام ومصروف بعض النزهات القصيرة لصديقته فرفارا . إن حب الآخرين والتضحية من أجلها هما المحوران الأساسيان لشخصيات دوستويفسكي. وهذان الأقنومان ليسا اجتماعيين كما توهم بيلنسكي ولا تقدميين كما يريد أدعياء الأدب السياسي . إن الأدب موقف وإن الشخصية الروائية الأصلية اقتراح على الانسانية . وليس من مقترح يضاهي دوستويفسكي في تفهم حاجة الانسانية إلى من يفديها بنفسه ، أو بالتخصيص إلى حاجة المجتمع الروسي إلى من ينشله من أزمة تخلفه عن

أوروبا الغربية . لقد كان دوستويفسكي قومياً مؤمناً بأمته . وكان يرى أنهـا بحاجة إلى جيل يضحي بنفسه في سبيل ارساء قيم العدل والمحبة على أرض روسيا والعالم .

إن هذه القراءة الجديدة لرواية الفقراء أكثر انسجامـاً مع روح دوستويفسكي من القراءات الأخرى التي تحمل على الرواية مثلاً مذهبية قد تختلف بعداً أو قرباً عن اقتراح دوستويفسكي على النفس الانسانية . وكذلك الرواية الثانية في المجموعة – رواية المثل وهي رواية تجاوز فيها دوستويفسكي الرواية الأولى – بل تجاوز المفهومات السائدة في عصره ، وسبق بها كافكا وسارتر في تبيان عدوان المجتمع على الفرد . إنها أشبه بكابوس مرعب يسحق الفرد حتى يكاد لايتعرف على نفسه من خلال الضغط الواقع عليه . ولو اعيدت قراءتها في العالم على ضوء تحليلات كافكا وسارتر لحظيت بتفسير وتقدير جديدين شديدين .

ذلك ان هذه المدرسة التي تقرر ان «أناي» تتحدد عبر علاقتي بالآخر «هو» لن تجد خيراً من هذه الرواية تجسيداً افكارها ومواقفها كما ان فكرة «الجحيم هو الآخرون» شديدة البروز في هذه الرواية . فالسيد باكوف بتروفتش جولد ياكين يستيقظ في الصباح مريضاً فيذهب الى الطبيب . وهناك – في العيادة – يتحدث عن طهارة نفسه وعن قذارة أعدائه الذين يريدون أن «يغتالوه معنوياً» باطلاق الاشاعات حول أموره الخاصة ، وأخـيراً يترك الطبيب في دهشة ، ويغادره دون أن يأخذ منه وصفة طبية . ثم يتجول في المخازن عاقداً صفقات وهمية مع التجار ثم يلجأ الى مطعم فيمكث فيـه بعض الوقت ويغادره دون أن يطعم شيئاً ، إلى حفلة عشاء في منزل مستشار الدولة بيرنديف الذي حضن جولد ياكين ورباه ورعاه منذ صغره . لكنه يفاجأ على الباب بالخادم يمنعه من الدخول . وبعد تردد طويل يتسلل بطلنا إلى الحفل من سلم الخدم ،

حيث يرى ابنـــة المستشار الحسناء التي كانت رفيقة صباه فيندفع إليها ويبدأ بتهنئتها على شكل يثير سخرية الحاضرين ويفقده صوابه بحيث لا يحس الا بأيدي الخدم وهي تدفعه على سلم الباب الخلفي الذي تسلل منه ... وبينما يسير ليـلا في طريقه الى بيته ، سكران ، مشوشاً قلقاً ، اذ يصطدم في الليل بشخص ، فيخاف منه دون سبب . ورغم أنه يغير طريقه عدة مرات فان الشخص نفسه يظهر له في كل مرة . وحين وصل الى بيته وجد ان ذاك الشخص قد سبقه اليه وطرق على بابه ففتح له الخادم فدخل . « اندفع بطلنا في الدهليز خارجـــاً عن طوره ، واجتاز الممر الضيق دون ان ينضو معطفه ، ووقف على عتبة غرفته مصعوقاً مشدوهاً كأن صاعقة نزلت عليه .. لقد انقطعت أنفاسه وأصاب رأسه دوار .

« كان الرجل المجهول جالساً أمامه على سريره هو ، يبتسم له ، ويغمز بعينيه ، ويحرك له رأسه باشارات صداقة ومودة ... اراد السيد جولياد كين أن يصرخ ولكنه لم يستطع . أراد أن يحتج ولكنه لم يقو على ذلك . انتصب شعره فوق رأسه . جلس دون ان يشعر أي شعور بما يفعل ، فكأنه ميت ذعراً ورعباً . وكان هنالك ما يدعو الى الذعر والرعب على كل حال . لقد عرف رفيق ليلته معرفة تامة آخر الأمر ان رفيقه ذاك لم يكن الا هو نفسه ، نعم ، انـــه هو نفسه ، جولياد كين بشخصه ، هو جولياد كين ثان ، لكنه شبيه به شبهاً مطلقاً ، مماثل له تماماً ، أو قل بكلمة واحدة انه ما يطلق عليه اسم « المثل » ، هو « مثل » السيد جولياد كين من جميع النواحي » .

وتمضي الرواية على هـذه الشاكلة بتعديل بسيط واحـــد هو ان جميع الأخطاء التي يرتكبها جولياد كين الثاني تحمل على جولياد كين الأول حتى تنتهي

الرواية ونحن ما نزال في حيرة من هذا الأمر. فشواهد الوقائع تؤكد أن ما حصل واقع وليس حلماً ولا كابوساً، غير ان الافتراض نفسه وبدايته المريبة تدعونا الى الحيرة فيه ومنه.

وانه لأمر غريب كل الغرابة «ألا يستقبلها النقاد والكتاب والقراء بمثل ما استقبلوا به قصة الفقراء بحماسة».

ولعل الدكتور الدروبي أحسن كل الاحسان في موقفه من أحكام بيلنسكي النقدية حين قال: «لكن بيلنسكي كان ينظر الى كل اثر من آثار الأدب من زاوية ضيقة خاصة، هي زاوية الأدب الاجتماعي الجديد الذي ينادي به ويدعو اليه. ولم يكن مهيئاً اذن لأن يرى كل ما في رواية «المثل» من عمق نفسي. فلئن كان جولياد كين ضحية ظلم اجتماعي - حسب رأي بيلنسكي - فان هذا ليس كل جولياد كين.. واذا كانت رواية «المثل» تفضح هذا الظلم الاجتماعي، فان هذا ليس كل رواية «المثل»... إن جولياد كين انسان «تنفصم» شخصيته على حد تعبير علماء النفس الحديثين.. انه يزدوج.. فمن رآه من خارج سماه مجنوناً وكفى.. وقد يضحك اضافة الى هذا. وما كذلك يفعل دوستويفسكي.. فانه يراه من داخل، أو قل انه يعيش معه تجربته النفسية».

ان التفسير العلمي قد يساعد على فهم الآثار الأدبية، لكنه لا يحيط بها. ان تفسير رواية «المثل» بالفصام، لا ينطبق عليها الا بقدر ما ينطبق على رواية «الاخوة كرامازوف» تفسيرها بعقدة أوديب - على الرغم من الفارق الشاسع بين الروايتين في البناء والتحليل. ولا ريب ان فارق النضج بين دوستويفسكي الشاب ودوستويفسكي الكهل هو السبب في هذا التفاوت الفاضح. على أن هذه الرواية من خير الروايات التي تحمل دوستويفسكي الى أمدائه المعهودة.

ولست أشك ابداً انه كتبها في لحظة من لحظـــات رعبه الكوني او في تلك الانخطافات التي كانت تحمله خارج حدود وعيه بهذا العالم . ولهذا السبب بالذات لم يستطع دوستويفسكي تعديلها على الرغم من التحامل الشديد على هـذه الرواية ، وشعور الكاتب بالمرارة من موقف النقاد ازاءها .

من نصر الى نصر

تعجل اسرائيل في نهايتها (١)

دلال حاتم

– قبل كل شيء، هل تعتبر كتابك نوعاً من الاحتجاج؟

● نعم، إذ ليس من المحتمل أن تستمع إلى الخطب، وأن ترى الهبات تنهال على الأغنى والأقوى، وأن تنسى في الوقت نفسه اسباب الصراع بين العرب واسرائيل. ومأساة الشعب العربي الفلسطيني الذي جرد من أراضيه وتحمل الكثير من البؤس.

– كيف تفسر وقوف عدد كبير من الفرنسيين إلى جانب اسرائيل؟

● عند تحليلي لهذا الموقف، اكتشفت بسرعة أن موقف الفرنسيين يعود إلى فهمهم السيء للحقيقة. لقد رأى

---

(١) بيير ديموروث، هو مساعد رئيس التحرير لمجلة Arts الفرنسية، ومدير القسم الأدبي لمجلة Nouveau Candide، ومؤلف كتاب ضد اسرائيل «Contre Israël» الذي صدر منذ مدة.

هذه المقابلة أجرتها معه مجلة جون آفريك Jeune Afrique الفرنسية العدد ٣٨٨ – ٣٨٩ حزيران ١٩٦٨.

الغرب ، ومنذ عشرين عاماً ، أن يقوم الفلسطينيون الأبرياء بدفع ما على الغرب من دين الى اليهود . هذه السرقة « الفضيحة » الاخلاقية هي التي أردت أن أشرحها في كتابي . ولا بد أن هنالك أسباباً أخرى لهذا الموقف الذي وقفه الفرنسيون بالنسبة لاسرائيل : الرغبة في الانتقام ، وخاصة بعد فشل العدوان على قناة السويس واستقلال الجزائر . لقد شاهدنا كل الموالين للاستعمار ينزلون إلى الشوارع يهتفون ويتظاهرون مع أعداء السامية في الماضي وأعدائها الآن ، ومنهم عدد كبير من الفرنسيين الذين هم من أصل يهودي . لقد كان انتصار اسرائيل في حرب الأيام الستة انتصاراً لهم ، حتى أبواق سياراتهم كانت تطلق أنغاماً « اسرائيل ستنتصر » كما كانوا يفعلون عندما تظاهروا أيام حرب الجزائر « الجزائر فرنسية » . كانوا يحاولون ايهامنا في بادىء الأمر ، بأن اسرائيل شعب صغير مسالم مهدد بالفناء ، مع أن الواقع هو عكس ذلك . لقد حدثونا كثيراً عن داود وجالوت . ولكن داود لم يكن مطلقاً الشخص الذي عرفناه أو حاولوا أن يعرفونا به . لقد ضاعف الاسرائيليون عدد الدبابات والطائرات والمدافع ، ويجب ألا ننسى بأن الآلة ليست ما هي عليه ، وإنما هي ما يريدها الانسان ان تكون ، كما ان الاسرائيليين أتوا من مجتمع صناعي متطور واستقروا في قلب عالم يسير في طريق النمو . لقد حاولت اسرائيل أن توهمنا في الخامس من حزيران ، ان مصر هي التي بدأت بالهجوم ، ونحن نعرف اليوم بأن الصحف الاسرائيلية والتي حملت في تلك الليلة العناوين الضخمة « مصر تهاجم اسرائيل » قد طبعت في الليل ، وحتى قبل ان تندلع نار الحرب .

إنه لمن غير المعقول ان نصدق بأن طائرات المعتدين قد تحطمت على الأرض من قبل طائرات المعتدى عليهم . تماماً كما لو جعلنا الاميركيين في بيرل هاربر هم

المعتدين ، واليابانيين هم المعتدى عليهم .
لقد قالت الدعاية الصهيونية إن المعتدي ليس هو من اشعل النار اولاً ، بل هو الذي اجبر المعتدي على فتح النار ، واتهمت الدعاية الصهيونية الرئيس عبد الناصر ، بأنه يريد القضاء على الاقتصاد الاسرائيلي باغلاق مضائق تيران ، علماً بأن ٥٪ فقط من تجارة اسرائيل تمر من ايلات عبر خليج العقبة ، كما ان ميناء ايلات قد بنته اسرائيل في ارض محتلة وذلك بعد وقف اطلاق النار عام ١٩٤٩ . وقد وجد عبد الناصر نفسه مجبراً على اغلاق مضائق تيران ليعيد ترميم وضع البلاد الداخلي بعد العدوان الاسرائيلي عام ١٩٥٦ .
ولكن ، يبدو أن الغرب ، قد قرر مرة اخرى بأن العرب مسؤولين في محاولتهم استرداد ما سلب منهم .

— ولكن ألا يستعيد اليهود أنفسهم أرضاً أخذت منهم في الماضي ؟ .

● اذا كنت تعتقد بأن لليهود الحق في العودة إلى فلسطين ، وذلك بعد مضي ألفي عام من سقوط آخر دولة يهودية ، فاسمح لي ان امنح الفلسطينين الحق بالعودة إلى بلادهم التي اخرجوا منها بالقوة منذ عشرين عاماً للمرة الأولى ، وفي عام ١٩٥٦ للمرة الثانية ، وفي عام ١٩٦٧ للمرة الثالثة . ان الذي يريدون ان يعودوا بالعالم الى ما كان عليه ايام السيد المسيح ، لا بد انهم يهيئون اياماً صعبة للأمم المتحدة ! .

ثم لماذا لا يعود العرب الى اسبانيا التي سكنوها اكثر من سبعة قرون ، والتي اخرجوا منها منذ خمسة قرون ، وما تزال آثارهم باقية فيها حتى اليوم ؟ .

ولكن ، يبدو أن الغرب قد نسي الوجود الفلسطيني ، كما نسي ان اسرائيل مازالت منذ قيامها حتى اليوم ترفض تنفيذ قرارات هيئة الامم القاضية باعادة اللاجئين الفلسطينين الى ديارهم التي اخرجوا منها بعد مذبحة دير ياسين . حتى ان اسرائيل لم تخف سبب رفضها في إعادة هؤلاء : انها تريد دولة يهودية صرفة ؛ كما

كانت المانيا النازية تريد دولة نقية من اليهود .

— هنالك ملاحظة أخرى ، وهي أن افريقيا السوداء متعاطفة أيضاً مع اسرائيل .

● هذا الوضع يبدو لي غير قابل للتفسير . فبالرغم من ان الغرب نقل الى افريقيا كثيراً من الامراض ، إلا انه لم يستطع ان يبث فيها مفاهيمه السيئة . هل يمكن ان نجد بعض الافريقيين انفسهم لكثرة ماردّدوا جملة « أجدادنا الغاليين » مرتبطين بدرومون ودار كيه بيالبوا ؟ . كيف يمكن لافريقي ان يكون مع اسرائيل ، مع ان جميع التبريرات التي شرحها التغلغل الاسرائيلي في القارة الافريقية ، هي نفس التبريرات الاستعمارية القديمة أي : التقدم الاقتصادي الذي اتت به اسرائيل الى المنطقة .

الحقيقة ، ان اسرائيل تحقق احلام الاستعمار القديم الغربي التي اخفقت . ان الغرب الذي أحلّ بسهولة المستعمر مكان المستعمَر يفضل طبعاً الاسرائيلين على العرب .. واسرائيل في تغلغلها في افريقيا تتابع الاشياء التي لم يستطع الاستعمار الغربي ان يفعلها .

— عندما يهاجم احد سياسة اسرائيل فانه يتهم حالاً بالعداء للسامية .

● بكل تأكيد ، وهذا شيء بسيط جداً ! انهم يحاولون القضاء على خصومهم بهذا النوع من الارهاب الفكري ، وهذه أيضاً من الاكاذيب التي حاولت شرحها في كتابي . هل نتهم بالعداء للسامية هذا العدد الكبير من اليهود المقيمين في فرنسا والعالم ، والذين اجبروا على تأييد العدوان الاسرائيلي ؟ ان اسرائيل تجر نفسها بطريقة ما ، الى يوم يجد فيه الانسان ان كونه معادياً للسامية أهون من كونه متعاطفاً مع الصهيونية .

يجب ان نكون اليوم الى جانب العرب ، كما كنا بالامس الى جانب اليهود ولنفس الأسباب : لأن هؤلاء كانوا أبرياء ، ولأن العرب اليوم هم الأبرياء . ان مذابح

أوشفيتز لن تنسينا مذبحة دير ياسين ، هذه الجريمة التي ارتكبت منذ عشرين عاماً من قبل القتلة في عصابة الارغون .

— ولكن ألا يعني عـداء العرب للصهيونية عداءهم للسامية ، كما يبدو لنا من بعض الصور والتصريحات ؟

● نعم ، أنا اعرف انهم يحبون أن يأخذوا من التصريحـــات الخطيرة التي يطلقها بعض الزعماء العرب تأكيداً لهذا الكلام. ولكن لنقارن الأقوال بالأفعال، صحيح ، ان العرب يحلمون ويتكلمون كثيراً، ولكن الاسرائيليين لا يتكلمون بل يبدأون دائماً بالعدوان . منذ عشرين عاماً والاسرائيليون يقاتلون العرب ، منذ عشرين عاماً مازال القنابل تنطلق من جهة واحدة باتجاه معسكرات اللاجئين. لقد كتب أحد المثقفين المصريين (لطف الله سليمان) في مجلة الازمنة الحديثة :

« اننا لم نتخذ أية بادرة في مجـازر اليهود لا بالقول ولا بالفعل ، ونحن لا نحمل أي ضغينة تجاههم ، وليس في تاريخنا مـا يستطيـع حملنا على قبول ان يتحمل اليهود شيئاً مما لحق بهم . انهم في نظرنا بشر ، بشر مثل الآخرين تماماً » . ولكن عندما يرتكبون جرائم القتل في دير ياسين ، فانهم يصبحون قتلة ، حاقدين مثل كل القتلة . ولكن بعـد أن جرد العرب من كل شيء — ماضيهم، مستقبلهم، وطنهم — يريدون أيضاً أن ينتزعوا منهم حق الحقد على اعدائهم .

— كيف ترى مستقبل اسرائيل ؟

● من نصر الى نصر ، تعجـــل اسرائيل في نهايتها . لقد رفضت اسرائيل رفضاً باتاً اعادة اكثر من مليون لاجيء فلسطيني الى وطنهم ، وها هي الآن نتيجة لحرب حزيران تجد حوالي مليون ونصف مليون عربي تحت الاحتلال . وأنا أرى ان اسرائيل ستنال العقـاب من نفس خطيئتها ، وإذا استمرت في الاحتفاظ بالاراضي المحتلة، فماذا ستفعل بهذه الاقلية العربية اذا غدت اكثرية ؟ . لاشك ان الاسرائيليين الآن اكثر غنى وقوة من

من العرب ، وهم يعتمدون على أكبر بلدان العالم ثروة وقوة: أي انهم يستطيعون ان يفرضوا قانونهم ، ان يحاربوا ، وأن يربحوا ، ولكنهم لن يستطيعوا توطيد السلم ، ان القوة الوحيدة للعرب تكمن في قولهم كلمة (لا) ، والزمن يعمل لصالح العرب هؤلاء الذين سيخرجون يوماً من تخلفهم ، وسيكون للعدد الذي لا شأن له اليوم شأن كبير في المستقبل.

لقد قام العرب بأشياء كثيرة خلال العشرين سنة الماضية ، لقد طردوا الانجليز من مصر ، والفرنسيين من شمال افريقيا . وفي الماضي قضوا على دولة الفرنجة بعد أن استمرت سبعين عاماً في الارض المقدسة ، واسرائيل ليس لها من العمر إلا عشرين عاماً .

— هل تعتبر الارهاب سياسة ؟

● لقد أطلق اسم ارهابيين على الرجال الذين يقاومون الاحتلال ، ويقاتلون من أجل تحرير وطنهم . ولكن هنالك حقيقة يجب ألا ننكرها : ان الذي حدث بالقوة لا يمكن أن يمحى إلا بالقوة .

من أجل النصر

عرض وتلخيص : هشام الدجاني

نشرت مجلة الكاتب في عددها الأخير دراسة فكرية مطولة حول الدروس المستقاة من الهزيمة والطريق الذي يجب ان يسلكه العرب لتحقيق أهدافهم التحررية. وقد كتب هذه الدراسة، التي اخترناها لما تتميز به من عمق ومن دقة علمية في التحليل، الدكتور عصمت سيف الدولة. وفيما يلي نقدم تلخيصاً وافياً لجوهر هذا الموضوع الذي يحمل عنوان : « من أجل النصر »[1].

ان يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ – يوم الهزيمة العربية – يمكن ان يكون بداية لتاريخ انتصار أمتنا لو أن نيران « النابالم » التي حرقت اجساد شهدائنا الأبرار قد حرقت ايضاً كثيراً من الأفكار والأساليب التي سيطرت على حياتنا الفكرية والسياسية قبل ٥ حزيران . ذلك لأن الأحداث التاريخية قد تكون انتصاراً وقد تكون هزيمة . وتتوقف الآثار الايجابية او السلبية للحدث التاريخي لا على ما أحدثه في حينه

(١) الكاتب : العدد ٨٩ – آب ١٩٦٨ – القاهرة .

من اضطراب ، ولكن على موقف الذين عانوا هذا الاضطراب من المستقبل الذي يتلوه . لأنه سواء أعجبنا ما وقع ام لم يعجبنا يظل المستقبل هو الساحة الوحيدة المفتوحة لإرادتنا الفعالة . وهنا الدور الايجابي للأحداث التاريخية سواء كانت نصراً او هزيمة .

لماذا وقعت الهزيمة ؟

ان الاجابة الصحيحة لابد ان تشمل كلا من الوقائع الفكرية والسياسية التي سبقت ٥ حزيران ، ثم المنهج والاسلوب الذي اتبعناه خلال مرحلة تاريخية انتهت بالهزيمة . ونقصر حديثنا على اسلوب العمل السياسي لأنه هو الحديث الجدي في الوطن العربي ، محاولين كشف ما فيه من قصور ادى الى الهزيمة .

ان الاجابة التي تتبادر الى الذهن على هذا السؤال هي أن اعداء امتنا من القوى الاستعمارية والصهيونية قد حشدوا ضدنا قوة عدوانية متفوقة . وهي اجابة صحيحة ، ولكنها غير وافية . ان العدو (الاستعمار الأمريكي والوجود الاسرائيلي) كان موجوداً قبل ٥ حزيران ، وهو نفسه لم يكف عن استغلال أية مناسبة لتذكيرنا بهذا الوجود وطبيعته العدوانية . لهذا فان محاولة اسناد هزيمتنا الى قوة اعدائنا وشراستهم لا تفيدنا شيئاً كثيراً . اولى من هذا ان نعرف نقاط الضعف في افكارنا وفي اسلوبنا ، وما هي الثغرات التي مكنت قوى كنا نعرف دوماً انها متربصة بنا أن توقع بنا الهزيمة ؟

اننا نعتقد ان السبب الأساسي في كل هذا أن السياسة العربية لم تنتهج قط الاسلوب العلمي لا في التفكير ولا في التدبير او الحركة . ونحن لا نعني بالاسلوب العلمي شيئاً أكثر من التخطيط وهو شيء نعرفه تماماً .

والتخطيط كأسلوب علمي يقوم على قاعدتين احداهما : عدم توقع تحقق غاياتنا بنفسها ، وعلى هذا الوجه تخرج السلبية والتواكلية . وثانيتها: ضرورة سبق الأحداث قبل أن تقع والتحكم في وقوعها

طبقاً لمخططات شاملة ومرحلية ، وعلى هذا الوجه تخرج التجريبية والمغامرة من عداد الاساليب العلمية .

طبقاً لهذا نجد أننا لسنا في حاجة الى اجتهاد لنعرف من اطراد نجاح اعدائنا ، منذ شراء قطع من الاراضي العربيـــة اتفاقاً فردياً حتى احتلال الاراضي العربية عنوة في ٥ حزيران ، انه كان نتيجـــة لتخطيط سياسي علمي . لقد اصبح معروفاً الآن – مما نشر عن حرب حزيران – ان الخطة العسكرية لهذه الحرب كانت معدة منـــذ عشر سنوات، ولم يتوقف التدريب عليها خلال هذه الفترة .

في مقابل هـذا لا نريد أن نستطرد في التدليل على ان العمل السياسي العربي قبل ٥ حزيران ١٩٦٧ لم يكن قائماً على اسس علمية ولا منتهجاً اسلوباً علميـاً .. ويوم ٥ حزيران ذاته يتضمن دليلا لا ينقض. واذا كانت العلامة المميزة للاسلوب العلمي في السياسة هي سبق الأحداث والتحكم في الظروف بحيث لا يقع ما لا يتوقع، فكلنا يعلم أن الأمة العربية كانت منـذ أمد بعيد تلهث جرياً وراء الأحـداث التي تدور على الارض العربية ، مندهشة من المفاجآت السياسية التي تتفجر ، في وطنها باذلة جهوداً خارقة في محاولات متأخرة لتدارك ما وقع .

ونحن اليوم ننكر ونـــدين اغلب الافكار والاساليب التي كانت سائدة قبل الهزيمة . ونحن نمارس عملية حساب قاسية لأنفسنا ، ونكاد نجمع على أن كل شيء في الحياة العربية التي انتهت الى ٥ حزيران يجب ان يتغير . معنى هذا اننا نعترف بخطأ الاسلوب الذي اتبعناه . وهـــذه ظاهرة صحية . وإن كل شيء في المستقبل سيتوقف على ما اذا كنا قد تعلمنا كيف ننتهج الأسلوب العلمي الصحيح .

إن الأمة العربية تملك في كل الحالات – المادية والبشرية والاقتصادية – امكانات تتجاوز بمـــا لا يقاس امكانات اسرائيل . ولكننا متخلفون عن اعدائنا في « كيفية » استخدام هـذه الامكانات

المتوفرة لدينا . واذا كان هذا التخلف معناه فقدان الاسلوب العلمي في استخدام امكاناتنا ، فانه يعني في الوقت نفسه ان الأسلوب العلمي يعوض النقص في امكانات من يستخدمه . وهذا احد الدروس الثمينة التي تعلمناها من يوم ٥ حزيران . ولكن عندما يستوي الطرفان في استخدام الاسلوب العلمي يحسم تفوقنا في الامكانات المعركة لصالحنا بأسرع مايمكن .

ما الذي ينقصنا حتى تكمل لنا المقدرة العلمية على النصر ؟

الاستراتيجية العربية !

لم يتوفر للسياسة العربية في العصر الحديث – عصر العلم – ذلك العنصر الاساسي في الاسلوب العلمي وهو الاستراتيجية .. الاستراتيجية التي تتضمن الخط الثابت للنضال العربي انطلاقاً من واقع الأمة حتى غاياتها مقسمة على مراحل زمنية ، حاشدة كل الامكانات البشرية والمادية ، تضبط النشاط السياسي في كل المواقع في اطار الخطة القومية . ومعنى هذا أن بين غاياتنا وامكاناتنا ثغرة خطيرة تحول الغايات الى مجرد شعارات والامكانات الى طاقات عاطلة . من هذه الثغرة – غيبة الاستراتيجية العربية – نفذت وتنفذ الى مواقعنا القوى المعادية وتكسب . ومن هذه الثغرة تكمن الاستحالة العلمية لإخضاع السياسة العربية لأي اسلوب علمي . ومع وجود هذه الثغرة لايمكن ان يتحقق لنا في المدى الطويل نصر حاسم . ذلك أننا بدون استراتيجية لانستطيع أن نسبق الحوادث وان نتحكم فيها ، فتسبقنا اليها القوى المضادة وتفجرها على أرضنا . وبينما ننشغل نحن بالحدث الذي وقع وأدهشنا وقوعه ، تكون تلك القوى مشغولة بالإعداد لتنفيذ الخطوة التالية من مخططاتها السياسية .. وهكذا .

والحقيقة ان افتقار السياسة العربية الى الاستراتيجية لم يكن خافياً على كثير من العاملين في الحقل السياسي . وقد جرت عدة محاولات لسد تلك الثغرة الهدامة على المستوى الرسمي والجماهيري .

بيد أن هـــذه المحاولات فشلت كلها . وجاءت هزيمة حزيران لتؤكد هذا الفشل بما لا يدع مجالاً للشك .

وأولى بنا الآن ان نعرف ماهي الظروف الموضوعية التي ادت بأجيال من المناضلين العرب لم تنقصهم المعرفـــة بالاسلوب العلمي ، ولم تنقصهم الرغبة في التزامه ، الى الفشل فالهزيمة . فمع هـذه المعرفة تتوقف مقدرتنا على تحقيق النصر في المستقبل .

إن هذه الظروف الموضوعية بالغة التعـدد والتنوع ، مستمرة في التغير . ولكي نستطيع الوصول الى اجابة يجب ان نقصر حديثنا على الظروف الاساسية والثابتة نسبياً . على ضوء هـذا نعتقد أن ثمة ثلاثة ظروف موضوعية « متكاملة » تقوم « معاً » عقبات في سبيل وحـــدة « الاستراتيجية » في النضال العربي .

أولاً — التجزئة :

إن واقع التجزئة في العالم العربي ، وانفراد كل دولة « بكيان » مستقل ، والـــتزام كل كيان لسياسة تتحرك في خدمة المصالح المحلية . كل هـذا جعل الالتقاء بين هذه الكيانات لقاء مرحلياً . وهذا يعني ببساطة ان ثمة استحالة موضوعية لإلتزام الدول العربية — بحكم انها دولة مستقلة — بأية خطة سياسية طويلة المدى ؛ اي بأية استراتيجية عربية ، لأن الالتزام يتطلب وحدة القيادة (اي وحدة الحكم) ، ويتطلب وحدة التنظيم (اي وحـــدة الدولة) . فاذا كان تعدد الدول العربية ، وبالتالي تعدد الحكومات ينفي وحـدة الدولة العربية وحكوماتها ، فانه ينفي اي إمكان لالتزام الدول العربيـــة باستراتيجية سياسية واحـدة ، حتى لو نسقت بين تحركاتها على مستوى التكتيك ومهما حسنت النوايا .

ثانياً — الاقليمية :

إذا كان تعدد الدول العربية يحول بطبيعة الدستورية والدولية دون توافر استراتيجية تلتزم بها الحكومات العربية ، وهو مايبرر فشل المحاولات الرسمية في

وضع هذه الاستراتيجية والالتزام بها ، فان هذه الاستحالة غير قائمة على مستوى النشاط السياسي الجماهيري . وتستطيع الجماهير العربية دوماً ان تضغط على حكوماتها وتلزمها بالتحرك سياسياً على وجه يتفق مع الاهداف القومية . ويمكن القول إن الخطوط العامة لمثل هذه الاستراتيجية قائمة بالنسبة الى القاعدة العريضة من جماهير الأمة العربية . غير أن هذه الخطوط العامة تواجهه عقبات تحول دون بلورتها في استراتيجية محددة وتجردها من اية فعالية سياسية .

أهم هذه العقبات هي الاقليمية . والاقليمية موقف ينطلق — على المستوى الفكري — من انكار لوحدة المصير التي يمثلها الوجود القومي ، وهو ينطلق — على المستوى الحركي — من قصر التزامه على المشكلات التي تطرحها الظروف الاقليمية تاركاً مسؤولية مواجهة المشكلات في كل دولة عربية « لرعاياها » . والاقليمية لاتعني دوماً عدم المشاركة في النضال « العربي » ، ولكنها مشاركة المرغم الذي ينتهز اول فرصة للهرب من تلك المشكلات التي تلهيه عن نضاله « الوطني » . وقد يكون تحررياً يخوض اقسى المعارك ضد الاستعمار ، ويطلب في معركته مساعدة كل القوى التحررية في الوطن العربي ، متذرعاً بوحدة المصير ، ولكنه لايلتزم بأكثر من تحقيق استقلال قطعة من الأرض العربية ليقيم عليها « جمهورية » ذات رئاسة واعلام واناشيد .

والخلاصة : إن الاقليميين يشغلون فعلاً مواقع في النضال العربي ، وهم يختلطون بصفوف المناضلين القوميين ولكن لكل فريق منهم مفهوم استراتيجي مختلف . وكلما أراد القوميون التقدميون فتح حوار بناء لتجاوز هذا الالتقاء الفكري المؤقت الى وحدة فكرية عقائدية دائمة احتج الاقليميون بأن تلك المحاولة تجريدية وغير واقعية ، واتهموها في بعض الأوقات بأنها غيبية أو عميلة .. الخ ..

ثالثاً — الاستعمار والصهيونية :

إن القوى المعادية تدرك بسهولة — كما أدركنا نحن — الدور الفتاك الذي تلعبه التجزئة والاقليمية معاً في مقدرة الأمة العربية على ان تمتلك اسباب النصر في نضالها . وهي تعرف تماماً قيمة هذا الدور في انجاح مخططاتها ضد الأمـة العربية . ومن هنا يمكن القول إن دعم التجزئة والاقليمية يكون جانباً اساسياً من استراتيجية القوى المعادية . وهذا ما يفسر لنا ذلك الاعلان المتبجح الذي تأخذ بـه الولايات المتحدة على عاتقها الالتزام بحماية استقلال دول الشرق الأوسط . والاستعمار هنا هو الذي يعلن هذه الحماية . انه يريد ان يقول ببساطة : لا وحدة عربية . وعلى مستوى الجماهير لا نعتقد أن امة في الارض قد تعرضت لحملة منظمة لتشكيكها في وجودها القومي وتدعيم الاتجاهات الاقليمية والانفصالية فيهـا مثل ما تعرضت وتتعرض له امتنا العربية .

تلك إذن ثلاثة اسباب موضوعية اساسية متفاعلة ومتكاملة ادت الى فشل المحاولات التي لم تنقطع لتحقيق وحدة النضال العربي على المستوى «الاستراتيجي» ، وحالت بالتالي دون ان تكون السياسة العربية سياسة علميـة بالرغم من كل النوايا الحسنة .

ما العمل ؟

لابد أن نحدد غاياتنا البعيدة بأكبر قدر من الوضوح حتى نعرف كيف نسير اليها ، انطلاقاً من الواقع العربي ، بطريق علمي . لا يكفي أن نقول مثلاً ان غايتنا هي الانتصار على الصهيونية والامبريالية ! ذلك لأننا نخوض معركتنا ضد اعدائنا كجولة رياضية في حلبة المصارعة . ان المبرر الوحيد المقبول للصراع ضـد الصهيونية والامبريالية هو أن نشاط هذه القوى في الوطن العربي يقوم عقبة في سبيل غايات محددة لنا تستحق أن نموت من أجلها ؛ ومعنى هذا أن تكون لنا غايات بعيدة نستهدفها من النضال

العربي . لقد حددت الجماهير العربية غايتها منذ أمد بعيد وهي : اقامة دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية . وعلى ضوء هـذه الغاية تكون استراتيجية النضال العربي تخطيطاً ثابتاً يحدد اتجاه هذا النضال في كل المواقع . في نطاق هذه الاستراتيجية وفي خدمتهـا تدور المعارك ضد كل القوى التي تناهضها وعلى رأسها الصهيونية والاستعمار . وتدور هذه المعارك على جميع الجبهات « المحلية والعربية والدولية » وفي جميع المجالات « الثقافية والدعائية والعسكرية » . ولما كانت هذه المعارك معارك تكتيكية (ضمن استراتيجية شاملة بعيدة المدى) فان الهزيمة فيها لا يمكن أن تكون الا تمهيداً لمعارك جديدة ، والنصر فيها لايمكن أن يكون الا تمهيداً لمزيد من النصر . وعلى هذا الوجه نغلق ابواب اليأس والالتزام ونكسب صلابة الصمود ضد الهزائم المرحلية والمحدودة ، لأننا نعلم أننا في الطريق الى هذه الغاية نخوض معارك متنوعة وكثيرة قد نكسب بعضها وقد نخسر بعضها وتبقى العبرة في النصر أو الهزيمة بالغاية النهائية التي لا يمكن أن تتحقق الا بعد سحق القوى المناهضة لها سحقاً تاماً ونهائياً .

على هذا الأساس تكون أمام الشباب العربي مهمتان :

المهمة الأولى :

ازالة اثار هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، وهذا أمر لا يطيق الانتظار حتى تخضع النضال العربي لاستراتيجية طويلة المدى ؛ اذ اننا مشتبكون فعلاً مع القوى المعادية في معركة لا بد من كسبها ولو كانت معركة محدودة ومرحلية . وهـذا يتم بأكبر قدر من التنسيق العربي لحشد كافة الجهود والامكانات المتاحة لكسب معركة ازالة اثار العدوان .

المهمة الثانية :

تصحيح اسلوب النضال العربي على اسس علمية بحيث نسبق الزمن ونتلافى

الحوادث قبل أن تقع ونتحكم في وقوعها. أي ان نبدأ من الآن في الاعداد للمستقبل. نبدأ من الآن في التجهيز للمعارك التي سنواجهها بعد النصر في معركة ازالة آثار العدوان. نبدأ من الآن في العمل من أجل الا تتكرر في تاريخنا هزيمة حزيران ١٩٦٧.

اذا كانت هزيمة حزيران قد علمتنا ان النصر النهائي لأمتنا، في معارك الحياة أو الموت التي نخوضها، متوقف على التحام المناضلين العرب في تنظيم قومي واحد، فانها تكون قد وضعت اقدامنا على أول طريق النصر.

أما كيفية قيام هذا التنظيم القومي، فهذا ما يفرد له الكاتب مجالا آخر للحديث.

الاستفادة من الأحلام لتشخيص الأمراض الفيزيولوجية والنفسية :

يقول الباحث السوفيتي فاسيلي كاساتكين : « لو تمكن الأطباء من ملاحظة احلام الناس باستمرار قبل وأثناء المرض وأثناء النقاهة ، اذن لسجلوا تبدلات ملحوظة فيها » . فأحلام معظم المرضى تضطرب قبل ظهور المرض ، ويخيم على الحلم طابع كريه .

ولا يلقي كاساتكين بكلامه جذافاً . ولم يصل الى هذه النتيجة إلا بعد ثلاثين سنة من البحث ، حلل خلالها زهاء ستة آلاف حلم بعناية . كان بعضها أحلاماً طبيعية ، بينما كانت الأخرى نتيجة تجارب او « روائح عاملية » خاصة أثناء النوم ، واستفاد في تحليل الأحلام من منجزات الفيزيولوجيا الكهربائية والفيزياء الحيوية .

واستنتج كاساتكين ان تشخيص المرض بالاستناد الى الحلم أسرع بكثير من تشخيص الطبيب المعالج .

فالأحلام تدل على الرشح والتهاب القصبات ليلة ظهور المرض ، وتدل على الزحار الحاد قبل ظهوره بيوم اويومين ، وتدل على التيفوئيد والذهان قبل اسبوع ، وعلى الذهان الانفعالي قبل ٣ ــ ٥ أيام ،

والهذيان الكحولي قبل ٥ — ١٠ أيام ، والعصاب قبل اسبوع أو عدة اشهر ، والسل الرئوي قبل شهر أو شهرين .

هناك كثير من الكتب الفيزيولوجية التي تبرهن على وجود جهاز للتوقع في الدماغ البشري .

وتتميز الاحلام المرضية عن الاحلام العادية ، بتفاهتها ورتابتها .

وما أن يبدأ مرض رئوي حتى تظهر في الحلم مناظر اضطراب في التنفس ، وأثناء امراض العضلات اضطراب في الحركة وما أن يبدأ مرض في القلب، حتى يرى المريض في نومه كوابيس تتعلق بالقلب مع خوف من الموت . ففي الامراض الرئوية - كالتهاب القصبات والسل الرئوي — يرى المريض في نومه انه يحاول النجاة عبثاً من الغرق ، أو انه يتسلق جبلاً ويعاني صعوبة في التنفس .

اما انقطاع الأحلام فيدل على ضعف في الجملة العصبية وفقر في النشاط النفسي ، وربما عاد هذا الى ارتفاع الضغط في الدماغ .

معرض للكاريكاتور :

تفتتح وزارة الثقافة معرضاً للكاريكاتور في المركز الثقافي العربي بدمشق في ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) المقبل .

براءات تقدير للمتفوقين في معرض الخط العربي :

دعت وزارة الثقافة الخطاطين للاشتراك في معرض الخط العربي الذي سيفتتح في شهر ايلول الحالي ، وتعرض فيه جميع انواع هذا الخط . سيطبع دليل فني يتضمن اسماء العارضين واعمالهم ، كما سيجري منح براءات تقدير المتفوقين ، هذا ، وسينظم في المعرض جناح خاص لأعمال الخطاط الراحل بدوي الديراني .